المكتبة الثقافية
١٥٠

شعر المهجر

للدكتور كمال نشأت

الدار
المصرية
للتأليف
والترجمة

١ فبراير سنة ١٩٦٦

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة
- تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة ومتخصصين وبخمسة قروش لكل كتاب
- تصدر مرتين كل شهر في أوله وفي منتصفه

الكتاب القادم

الفيروس والحياة

الدكتور عبد المحسن صالح

١٥ فبراير سنة ١٩٦٦

دار مصر للطباعة

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٥ مـ

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠

مقدمة

للشعر المهجرى ـ بعد الدراسات التى كتبت فيه ـ مكانة الريادة فى كثير من اتجاهاته ، وقد جذب هذا الشعر أنظار القراء والنقاد والدارسين منذ أن ابتدأت أنغامه تصل الينا عبر المحيط بعد الحرب العالمية الأولى .

وأنا فى هذه الدراسة المبسطة أحاول أن أقدم للقارىء صورة متكاملة له أرجو أن تحببه فيه . .

« د. كمال نشأت »

أسباب الهجرة

تعرضت الشام منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين الى حركة هجرة واسعة تعتبر من أهم حركات الهجرة فى العصر الحديث ، ومن المعروف أن مثل هذه الحركة لا تقوم الا اذا كانت هناك من الأسباب ما يهيىء لها فى نفوس المهاجرين الى الحد الذى تنتصر فيه الرغبة فى ترك الوطن على الحب الغريزى له . ويدلنا التاريخ على أن شعبا من الشعوب لم يهاجر الى وطن جديد الا عندما يجد أوضاعا اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية لا تلائمه ولا ترضى طموحه وبخاصة اذا كان واقعا تحت سيطرة حكم غاشم كما كانت الحال فى الشام تحت حكم العثمانيين .

ففى عام ١٥١٦ استولى السلطان سليم الأول على الشام وضمها الى الدولة العثمانية ، وتاريخ الشام تحت سيطرة العثمانيين زاخر بقصص الاضطهاد والتشريد والذل وسوء الأحوال الاقتصادية ، ولا يكفى أن نعمم القول فى هذا المجال فنشير الى سوء هذا الحكم تعليلا لحركة الهجرة دون أن نتحدث عن نوعية هذا السوء لنعرف الى أى مدى وصلت الحالة فى هذه البلاد .

ظلت الشام ـ وهى تحت الحكم العثمانى ـ خاضعة

لنظام سياسى ظالم يشبه عصر الاقطاع الذى ظل فى فرنسا وبعض دول أوروبا الى أواخر القرون الوسطى ، فكانت البلاد مقسمة الى مقاطعات يحكمها بالوراثة أمراء ومشايخ ، وكانت هذه المقاطعات تتنافس وتتناحر والمعارك بين حكامها لا تنتهى ، فعاش أهل الشام فى خوف دائم وفى ظل أحوال اقتصادية سيئة وحكم جائر لا يعرف العدل حتى جرت الأمثال بذكر هؤلاء الحكام الطغاة أمثال قراقوش والى حلب وأحمد الجزار والى صيدا ويوسف باشا سيفا والى طرابلس . ولم يسلم الأهالى من الجنود فى حالى السلم والحرب فاذا ثار هؤلاء لسبب من الأسباب كتخلف الولاة عن دفع رواتبهم صبوا عدوانهم على الأهالى المسالمين ، مثلما فعل الانكشارية الذين قتلوا كثيرا من الناس ـ حينما حل الوالى فرقهم وأنشأ فرقا جديدة على نمط الجيوش الأوربية ، أو مثلما فعل جنود الجزار حينما نهبوا غلال الناس استيفاء للضرائب .

والى جانب ذلك قامت الخلافات الطائفية ووصل الأمر الى حد الأعتداء المسلح كالحرب الأهلية التى قامت بين المسيحيين والدروز وهى أول حركة طائفية (حدثت عام ١٨٤١) وقامت الحركة الثانية عام ١٨٤٥ وتلت هاتين الحربين الأهليتين مذابح الستين الشهيرة عام ١٨٦٠

وظلت الخلافات الطائفية تنهك جسد الشعب حتى تعذرت الحياة الآمنة ، وزاد الطين بلة الحكم العثمانى الجائر

الواقف بالمرصاد لكل حركة تدعو الى التحــرر أو تطالب بشيء من الحقوق المهضومة ، وعاش أهل الشام فى أواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين تحت رقابة البوليس خصــوصا المفكرين منهم ، فقـــد كانت منظمة (المابين) تتحرى أخبار الوجوه من الناس مفكرين وسياسيين وزعماء اصلاح اجتماعى ، ووصل الخوف بالناس الى مداه ، فقد كان الرجل منهم يعرف مصيره اذا علم أن شخصا قد كاد له افتراء عند المسئولين فى (المابين) ويكفى أن يرسل اليهم رقعة تحتوى على اسم الضحية وانها تشارك فى حركة تركيا الفتاة .

أما المكتبات الخاصة ــ كما يقول سليمان البستانى ــ فقد كان الوشاة يتذرعون ولو بصــفحة منها تتحدث عن الحرية أو الثورة ليزج بصاحب الكتاب فى السجون . وقد سجن مرة كثير من وجهــاء القوم وعلمــائه اثر غارة على مكتباتهم الخاصة .

أما الجرائد فقد كانت تلقى الأمرين فكم من جــريدة الغيت أو أوقفت لزمن محدود لأنها نشرت خبرا يتحدث عن ثورة قامت فى بلد ما أو أشارت الى مقتل وزير أو أمير بل كم من مرة سجن صاحب الجريدة ومحررها لأنهما لم يعرفا أن الفاظ الجمهورية والحرية والثورة والديناميت والخلع وما يشتق منه من الألفاظ المحرمة التى يجب على الصحفيين الابتعاد عنها ، حتى الأسماء كان على الناس تغييرها فأسرة

سلطانى وهى أسرة معروفة فى سوريا اطلقت على نفسها اسم « سلتانى » هربا من التشابه الذى يجر الويلات .

ولذلك كان الغنم كله للحكام والغرم كله للمحكومين الذين ابتلوا بالفساد فى كل شيء يتناول حياتهم ، فلا بدع ان جرى على السنة الشعراء ذكر هذا العهد الكريه بالذم والتحقير .

حتى اذا جاء الفرنسيون الى الشام استغلوا الخلافات الطائفية تمكينا لحكمهم وفرضا لسلطانهم فقسموه الى الأقسام الآتية :

١ ـ دولة لبنان الكبير (بيروت) موارنة .
٢ ـ دولة العلويين (اللاذقية) نصرانية .
٣ ـ دولة دمشق (دمشق) سنية .
٤ ـ دولة جبل الدروز (السويداء) درزية .
٥ ـ دولة حلب (حلب) سنية .
٦ ـ سنجق اسكندروند (اسكندرونة) سنية تركية

ونجاحا لهذه الفكرة الرامية الى تقسيم الشعب الواحد الى ملل وطوائف دينية وزعت الأسلحة على هذه الطوائف حتى اذا ثار النزاع تدخل الفرنسيون مستفيدين من هذه الخلافات التى تفت فى عضد الشعب الواحد الذى انشق على نفسه الى درجة العدوان المسلح .

وقد تضافرت عوامل عديدة بجانب هذه الخلافات شجعت على قيام حركة الهجرة منها محاولة الفرار من

الخدمة العسكرية وفقر البيئة وتقدم المواصلات وتشجيع المهاجرين للمتخلفين ، كما كان لفتح قناة السويس أثره الاقتصادى فى تجارة الشام فقد أخذ الحرير السورى ـ وهو من أهم صادرات الشام ـ يعرف الكساد لمنافسة الحرير اليابانى والصينى ، ولا ننسى هاهنا اتصال الشام بالثقافة الغربية وبخاصة عن طريق الارساليات الأجنبية من أمريكية وانجليزية وفرنسية وألمانية وغيرها ، فان انتشار الثقافة جعل الناس أعمق احساسا بسوء الحالة ، وطريق الخلاص أمامهم لم يكن ممكناً الا عن طريقين الثورة أو الهجرة ، وقد فضل أهل الشام الطريق الثانى فابتدأوا ينزحون الى أوطان جديدة .

هذه هى الأسباب المباشرة وغير المباشرة التى سببت هذه الحركة الضخمة ، ولعلنا نرى فى الأبيات الآتية التى كتبها شاعر مهاجر تصويرا لكل هذه العوامل :

لا الرزق فى تربة الأوطان يغنينا
ولا توطن أرض الغير يرضينا
فى أربع الأهل بؤس العيش يؤلمنا
وفى المهاجر نار الوجد تكوينا
لو أن لبنان فيه العيش منبسط
لما ابتغينا نزوحا عن أراضينا
ما فى البلاد مشاريع معززة
تحيى البلاد بانتاج وتحيينا

داء التغـــرب من بؤس ومن عوز
في موطن الأرز قد أعيا المداوينا

وقد امتصت هذه الهجرة قوى لبنان ممثلا فى شبابه الطامح الذى خلف وراءه أهله وخلانه ليضرب فى مجاهل وطن جديد لا يعرفه .

ويحكى محمد كرد على أنه زار مرة قرية من قرى لبنان فلم يجد فيها الا الشيوخ والمسنات من النساء والأطفال ، وعمل هؤلاء هو انتظار البريد فى مطالع الشهور ليسدوا مطالب الحياة بالنقود التى يرسلها اليهم أبناؤهم المهاجرون .

وليس هناك سجلات رسمية تحدد عدد المهاجرين أو وقت ابتداء الهجرة ، ولكن الشائع بين المهاجرين انها بدأت فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر .

وقد كانت مرسيليا نقطة الانطلاق الى المهجر ، فالمهاجر يقرر عندما يصل اليها هل يركب البحر الى أمريكا أم يتابع سفره الى غرب افريقيا . يقول أسد الأشقر « ومن راقب المهاجرة اللبنانية كما راقبتها أنا من سنة ١٩٢٥ الى سنة ١٩٣٦ فى مرفأ مرسيليا كان عنده الخبر اليقين عن آلامها وتعاستها فقد رأيت فلاحين فى الستين من عمرهم تاركين عيالهم بائعين أبقارهم راهنين أملاكهم ومغامرين فى سفرة الى البلاد السوداء الى دكاترة فى الحقوق مســافرين الى « دكار » ليتاجروا فى الفســتق والكولا » الا أن الأمريكتين كانتا وجهة أغلب المهاجرين ، وان كان هناك عدد كبير قد

ولى وجهه شطر استراليا وافريقيا وجزر ماليزيا واليابان والصين ومصر وفرنسا واستقر هناك .

وقد أثبت الأستاذ « فيليب حتى » أن أول مهاجر شامى وصل الى أمريكا هو أنطونيوس اليشعلانى الذى هاجر الى نيويورك عام ١٨٥٤ م . وقد كان أغلب المهاجرين من الفقراء الذين كانوا يستدينون نفقة سفرهم أو يسافرون على نفقة شخص يستردها منهم على دفعات فى مدد معلومة .

الا أن أغلب المهاجرين لم يسافروا الى أوطانهم الجديدة عازمين على البقاء فيها ، فما هى الا سنين قليلة يكون المهاجر منهم ثروة ويعود بعد ذلك الى وطنه الأول ، ولكن الواقع أن أغلبهم لم يستطع العودة ، فان الكفاح فى الوطن الجديد والرغبة فى الاثراء وحاجة العمل الى أشخاص آخرين يساعدون صاحب التجارة دعت المهاجر الى احضار زوجته أو أمه أو أخته أو أخيه لمساعدته .

وقد اشتغل المهاجرون ــ بطبيعة الحال ــ بالتجارة ، فابتدأوا أول الأمر يبيعون بالتجزئة عن طريق التجوال فى القرى حتى اذا تحسنت الحال بعض الشىء استوردوا بعض البضائع لحسابهم الخاص وينتهى الأمر بعد ذلك بافتتاح متجر يتوج كفاح المهاجر ويدخل بعض الاطمئنان فى حياته الخاصة .

الا أن الوصول الى هذا الاطمئنان لم يكن يسيرا ، فقد كافح المهاجر كفاحا شاقا وهو ينتقل ببضائعه الصغيرة من

الدبابيس والأمشاط والايقونات الخ .. بين القرى والدساكر وعلى فمه بعض ألفاظ من الانجليزية التقطها من هنا وهناك ، ولذلك كان الصندوق الذى يحمل فيه بضائعه ويسمى (الكشة) رمزا لهذا النضال والدأب .

ولقد فضل المهاجرون الأول حرفة التجارة على الاشتغال بالأعمال اليدوية الشاقة كمد السكك الحديدية وأعمال البناء والحفر ، تلك التى اشتغل بها معظم مهاجرى شرق وجنوب أوروبا . وكانوا يسكنون ــ فى أول هجرتهم ــ خمسة أو عشرة أو أكثر فى منزل واحد وفى أحياء متواضعة لرخص الأجرة وتوفيرا للنقود . وبتوالى الزمن نجح كثيرون فى ميدان التجارة ، وتزوج بعضهم من أمريكيات وعاش عيشة ترف ومتعة .وان كان كثيرون أيضا قد أخطأهم الحظ فلم ينالوا ما نال هؤلاء من نجاح فظلوا يشتغلون بأعمال بسيطة .

أما الأجيال التالية من أبناء وأحفاد المهاجرين الأول فقد نشأوا فى أمريكا وتعلموا فى مدارسها وجامعاتها ، واشتغل كثير منهم بالطب والصيدلة والهندسة والمحاماة وغيرها واذا بهم يعيشون عيشة أمريكية الطابع بعد أن تأمركوا جنسية ولغة وعادات . وهناك احصاء يقول ان عدد الجنود المشتركين فى الحرب العالمية الأولى فى الجيش الأمريكى من أبناء المهاجرين الشاميين بلغ ١٤٠٠٠ شاب .

والجالية الشامية فى أمريكا الشمالية من اكبر الجاليات

خصـــوصا فى نيويورك كما أن لها نشـــاطها الثقافى والعلمى وأنديتها الخاصة وجرائدها ومجلاتها العربية ، وأول جريدة صدرت فى المهاجر هى جريدة (كوكب أمريكا) عام ١٨٨٨م وقد توالت بعدها الجرائد والمجلات التى كانت ــ ولا تزال ــ رسولا بين المهـاجرين وبين مواطنيهم ، وقد لعبت هــذه الجرائد والمجلات دورا هاما فى المحافظة على اللغة العربية كما كانت ميدانا لأقلام الكتاب والشعراء وبخاصــة أعضاء (الرابطة القلمية) فى أمريكا الشمالية و (العصبة الأندلسية) فى أمريكا الجنوبية .

وقد شــاركت الصــحافة المهجرية عامة فى قضــايانا القومية ووقفت الى جوار كل حركة اصلاحية أو وطنيــة الا أنها للأسف آخــذة فى الأفول لأن الأجيــال التى كانت تعرف العربية قد انتهت وأولادهم وأحفادهم قد اندمجوا فى الحياة الأمريكية اندماجا تاما وهم لا يعرفون من العربية حرفا ولذلك تتهاوى الجرائد والمجلات العربية الواحدة بعد الأخرى ، أما الأدب المهجرى فقد مات معظم أعلامه كجبران والريحانى وأبى ماضى وعبد المسيح حداد وغيرهم وما زالت بقية من جيلهم ــ أمد الله فى أعمارهم ــ تصدح وراء المحيط أمثال شفيق معلوف والياس فرحات وغيرهما .

مدرستا المهجر الشمالى والمهجر الجنوبى

أو

الرابطة القلمية والعصبة الأندلسية

ظهرت المدرستان فى فترة متقاربة بعد الحرب العالمية الأولى وسنتحدث باختصار عن كل منهما :

الرابطة القلمية :

تجمعت جهود أدباء المهجر الشمالى وكونت جماعة أدبية باسم (الرابطة القلمية) وهى الرابطة التى ضمت أكبر أدباء المهجر الشمالى وأبعدهم صيتا ، وكان من أهم أهدافها « بث روح جديدة فى جسم الأدب العربى وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد الى حيث يصبح قوة فعالة فى حياة الأمة » .

وقد أنشئت هذه الرابطة فى نيويورك عام ١٩٢٠ وكان : جبران خليل جبران رئيسا ــ وميخائيل نعيمة مستشارا ــ ووليم كاتسفليس أمينا للصندوق ، أما الأعضاء فهم : ايليا أبو ماضى ونسيب عريضة وعبد المسيح حداد ورشيد أيوب وندرة حداد ووديع باحوط والياس عطا الله . ولم

يكن هؤلاء كل أدباء المهجر فقد كان هناك مثلا أمين الريحانى ومسعود سماحة وأمين مشرق ونعمة الحاج وهؤلاء لم يشتركوا فى الرابطة .

وقد كانت ميول هذه الجماعة متقاربة الا أنهم اختلفوا أصالة وموهبة ، وهى أول جماعة أدبية تجتمع على أهداف مرسومة وغايات معروفة ، وقد تابعت المدرسة الرومانسية ، ووجوه الشبه بين المدرستين - كما يقول مارون عبود - كثيرة ، فهناك الثورة الفرنسية وهنا الحرب العظمى وهناك (سنت بيف) وهنا ميخائيل نعيمة الذى كان ناقد الرابطة ، ثم ان المدرسة الرومانتيكية ضمت رسامين وان لم يكن فى الرابطة من الرسامين الا جبران .

وقد كانت مجلة (الفنون) لصاحبها الشاعر نسيب عريضة ميدانا لأقلامهم قبل انشاء هذه الرابطة ، وبعد ذلك كانت جريدة (السائح) لصاحبها عبد المسيح حداد لسان هذه الجماعة الأدبية التى كانت تصدر عددا أدبيا ممتازا تحتشد فيه المواهب ، وكانت هذه الأعداد الممتازة حملا أدبيا مهما ، فكثيرا ما كانت الجرائد والمجلات فى المشرق العربى تنقل منها بعض ما تنشره لأعضاء الرابطة مما جعل أسماءهم تلمع فى ميدان الأدب .

وفى عام ١٩٢١ أصدرت الرابطة مجموعة تحمل عددا كبيرا من المقالات والقصائد ، وكانت المجموعة الوحيدة التى أخرجتها لأن المال كان يعوزها . وقد ظلت الرابطة القلمية

حية بأعضائها نحو احدى عشرة سنة أى من ١٩٢٠ الى ١٩٣١ ثم تبعثرت بعد ذلك حين مات جبران ثم تلاه رشيد أيوب والياس عطا الله فنسيب عريضة وندرة حداد ووليم كاتسفليس ووديع باحوط وعبد المسيح حداد وايليا أبو ماضى ولم يزل ميخائيل نعيمة – وهو البقية الباقية من هذا الرعيل – يعيش فى قريته (بسكنتا) بلبنان فى شبه عزلة صوفية .

الا أن ألمع هذه الجماعة الأدبية اسما وأبعدهم صيتا فهم جبران ونعيمة وأبو ماضى وعريضة .

العصبة الاندلسية :

كون أدباء المهجر الجنوبى جمعية أدبية منذ أكثر من نصف قرن أطلقوا عليها اسم (رواق المعرى) ، وكان أعضاء هذه الجمعية يجتمعون ليتدارسوا شعر حافظ وشوقى واضرابهما من الشعراء الذين يصدحون وراء المحيط . وكانت هذه الجماعة مكونة من قيصر المعلوف وجورج عساف ونعوم لبكى وخليل كسيب ويوسف ناصيف الضاهر وفارس نجم وأنيس يواكيم الراسى ووديع فرح معلوف وأسعد بشارة وغيرهم وقد أصدرت هذه الجمعية الأدبية كثيرا من الصحف والمجلات ، كما نشرت أول ديوان شعر مهجرى بعنوان (تذكار المهاجر) لقيصر المعلوف . حتى اذا أنشئت الرابطة القلمية بعد الحرب العالمية الأولى

فى المهجر الشمالى تنادى أدباء المهجر الجنوبى لانشاء جمعية أدبية تلم شملهم وكان صاحب الفكرة الشاعر شكر الله الجر الذى سافر الى سان باولو واتصل باخوانه الأدباء الذين اتخذوا هذه المدينة الصناعية موطنا ومقاما ، فاجتمع فى منزل ميشال معلوف بكثير من الأدباء الذين استقر رأيهم على تسمية جمعيتهم باسم (العصبة الأندلسية) تيمنا بالعصر العربى الأندلسى .

وكان من أهداف هذه الجمعية الأدبية (جمع أدباء العربية فى البرازيل وتآخيهم وتعزيز الأدب العربى فى المهجر وتأسيس منتدى أدبى صرف واصدار مجلة تنطق بلسان العصبة وايجاد الصلات القلمية وتوثيق ربط الولاء بين العصبة وسائر أندية الأدب العربى ، والتذرع بكل وسائل الأدب والعلم الى رفع مستوى العقلية العربية ومكافحة التعصب ..)

وأصبح أعضاء العصبة بعد ذلك : رشيد سليم الخورى (الشاعر القروى) وأخوه قيصر (الشاعر المدنى) وشكر الله الجر (صاحب فكرة تأسيس العصبة) والياس فرحات ونعمة قازان ورياض معلوف وشفيق معلوف وميشال معلوف (رئيس العصبة) وعقل الجر وحسنى غراب، وكلهم شعراء ، أما الكتاب فكانوا حبيب مسعود (رئيس تحرير العصبة الأندلسية التى سميت باسم الجمعية) وجورج حسون ونظير زيتون ويوسف أسعد غانم

وتوفيق ضعون وجورج ليان وانطون سليم سعد وسلمى صائغ واسكندر كرباج وغيرهم . وكان هناك أدباء وشعراء لم ينضموا الى العصبة ، وقد انفصل منها بعد ذلك نعمة قازان والياس فرحات .

واشتركت الجمعيتان الرابطة القلمية والعصبة الأندلسية فى انعاش الأدب المهجرى وامتد أثرهما الى المشرق العربى ، وليس من شك فى أن أدبهما الطليق طلاقة الحيـــاة التى استوحاها أدباء الجمعيتين قد ترك أثره فى الأدب العربى فى الشرق ، فقد حاربت هاتان المدرستان روح الجمود والتقليد وافهمتا الأدباء الحفريين أن الأدب ابن الحياة والعصر وأن الزخارف اللفظية والاكليشيهات التقليدية التى انحدرت من اجيال الضعف والخمول لا تليق بأديب يعيش فى القـــرن العشرين ، الا أن أثر المدرستين فى هـــذا المجال لم يكن متساويا ، فقد كانت الرابطة القلمية أكثر وعيا وتحررا من العصبة الأندلسية ، وكان أثر الرابطة فى النثر والشعر أثر الرائد الذى يفتح مجالات جديدة ، وبخاصة فى النثر الذى لعبت هذه الرابطة دورا كبيرا فى تحرره وانطلاقه ، وعلى الرغم من أنها لعبت دورا مشابها فى الشعر العربى (وكان معظم كتابها شعراء) الا أن نثرها كان أعظم من شـــعرها باستثناء أبى ماضى . أما العصبة الأندلسية فكانت أقرب الى المحافظة وقد استعلنت باتجاهها القومى وبخاصة فى نتاج شاعريها الجهيرين رشيد سليم الخورى والياس فرحات .

فاذا قلنا شعر المهجر انصرف الذهن فورا الى شعراء الرابطة القلمية ثم الى عدد محدود من شعراء العصبة الأندلسية كشفيق معلوف والقروى وفرحات ونعمة قازان.

ولنا أن نقف الآن لنسأل : ما مصير العرب واللغة العربية فى المهاجر الأمريكية ؟

ان رعيل الأدباء والشعراء الذين هاجروا الى الأمريكتين فى أوائل هذا القرن قد اختارهم الله الى جواره الا بقية منهم ما زالت تصدح وراء المحيط ، وبانتهاء هذه البقية سيموت الشعر العربى وستقبر اللغة العربية فى المهاجر ، لأن الأجيال الشابة والناشئة من أبناء المهاجرين لا تعرف لغة الأجداد ولا تتحدث الا بالانجليزية (فى أمريكا الشمالية) ، والاسبانية والبرتغالية (فى أمريكا الجنوبية) ، فالوسط الذى تعيش فيه قد طبعها بطابعه ، فهم أمريكيو الجنسية والعادات والتقاليد واللغة ، وليست هناك رابطة تربطهم بوطنهم الأصلى والموهوب من هؤلاء الأبناء يكتب أدبه بلغة موطنه الجديد. فالشاعرة (أولجا شمس) التى تسمى نفسها بـ (ماريا دالما) لبنانية من أبوين لبنانيين ولها ثلاثة دواوين باللغة الاسبانية وآخر تحت الطبع وقد انتشرت أشعارها فى الأقطار التى تتحدث بهذه اللغة .

وعلى الرغم من التسهيلات التى تمنحها سوريا ولبنان تشجيعا للمهاجرين على العودة فانهم لا يفكرون فى العودة النهائية وان كانوا يزورون أوطانهم الأصلية كلما سنحت لهم

الفرص . يقول مؤلف (نحن فى افريقية) : شاهدت مهاجرين قدماء بلغوا من السن عتيا وكنت أسألهم لماذا لا يعودون الى الوطن فيجيبونى : تطلب منا العودة الى الوطن ، ولكن لماذا نعود ؟ لقد اعتدنا على المعيشة هنا .. أموالنا وأملاكنا هنا .. كل معارفنا فى الوطن ماتوا أو نسيناهم ، ولم يبق لنا هناك من نعرفه أو من يهمنا التعرف عليه فلماذا نعود ؟.. هذا هو حال الكثيرين ، وهو دليل على أن الرابطة المعنوية تصبح واهية اذا طال عليها الزمن ، وهى مرتبطة بحياة المهاجر نفسه ، فاذا قضى نحبه فى المهجر وترك ثروة لأولاده فانهم يستأنفون عمله فى المهجر دون تفكير بوطن لا يعرفونه الا اسما .

وهكذا اندمجت الأجيال الشابة والناشئة فى أوطانها الجديدة ومن هنا كان موت اللغة العربية والأدب العربى فى المهاجر .

خصائص شعر المهجر

عرف شعر المهجر بخصائص مميزة فتحت له دربا جديدا بعد عن جادة الشعر الحديث فى الأقطار العربية ، وشعراء الشام الذين هاجروا الى الأمريكتين ولدوا جميعا فى الشام ، وطبيعة الشام الجغرافية لها أثر كبير فى انماء واثارة الشاعرية الخصبة لهؤلاء الشعراء ، فلبنان مثلا البلد العربى الوحيد الذى يجمع بين النهر والبحر والسهل والجبل والينابيع والثلوج والمروج . واللبنانى لا يملك الا أن ينشأ على الخيال المجنح ، فليس بغريب اذن أن يمنح لبنان العالم العربى هذه الكوكبة الخالدة من شعرائه ، فان البيئة الجغرافية الجميلة والرقى الحضارى وانتشار الثقافة العربية والأجنبية فيه جعلت منه موطنا خصبا للشعراء .

يقول مارون عبود : « يعجب الناس لكثرة شعرائنا المجيدين ولو أمعنوا الفكر قليلا فى الغناء اللبنانى العامى الذى تنام عليه أطفالنا وتستيقظ لأدركوا سر شاعريتنا ، فكل ما فى لبنان شعر » .

ويشير جبران خليل جبران الى أثر هذه الأغانى الشعبية اللبنانية فى سياق كلامه عن أمه فيقول : (كنت

افضى معها ساعات صامتا لا أفوه ببنت شفة وهى تنشد لى اغانى لبنان الجميلة بصوتها العذب الحنون الساحر ..) .

وهكذا تضافرت البيئة الجغـــرافية الجميلة والأغانى الشعبية والارتقاء الحضارى والثقافى على خلق هؤلاء الشعراء وكثرتهم ، ولعلنا نستطيع هنا أن نعلل ظاهرة معروفة وهى ان كثيرا من شعراء لبنان يمتون الى بعضهم بصلة القرابة القريبة ، فعائلة المعلوف منها قيصر المعلوف صاحب ديوان (تذكار المهاجر) وهو أول ديوان طبع فى المهجر ومنها شفيق معلوف وشقيقاه فوزى المعلوف ورياض المعلوف وهنـــاك رشيد سليم الخورى (الشاعر القروى) وشـــقيقه قيصر الخورى (الشاعر المدنى) وهناك أيضا الياس قنصل وشقيقه زكى قنصل ولن ننسى ها هنا عبد المسيح حداد وشقيقه ندره حداد وشكرالله الجر وشقيقه عقل الجر . وليس أدل على أثر لبنان فى خلق الشعراء من ذكر هذه الصـــلة التى تربط بينهم والتى تكاد تشعرنا بأن الشعر يجرى فى دماء اللبنانيين جميعا .

أما شعراء المهجر الذين شبوا فى هذا البلد الجميل فقد تأثروا بكل ما فيه وهاجروا الى وطن جديد كافحوا فيه كفاحا بطوليا واجتمع لهم من تجارب حيـــاتهم فيه ومن موحيات هذه الحياة ما لم يتحقق لغيرهم من شعراء الشرق وبخاصة تأثرهم بهذا النمط الجديد من حياة مجتمع متحضر

راق . وقد تجمعت كل هذه التجارب والخبرات والعواطف وتبلورت لتمنح شعرهم خصائص معينة عرفوا بها .

والخصيصة العامة التى تغلب على شعرهم كله هى روح الرومانسية وهى الاتجاه الذى سلكه كل شعراء المهجر وان كانت هنـــاك اتجاهات أخرى لا تقف الى جــوار الاتجاه الرومانسى ، فقد عرف شعرهم شيئا من الرمزية والواقعية ولكن لم يكن الشعراء قد تعمقوا هذين الاتجاهين بعد .

فاذا عرفنا أن بعضا من شعراء المهجر كانوا يقرأون الأدب الانجليزى وأن منهم من كتب بالانجليزية كجبران والريحانى، علمنا أثر اطلاعهم فى نفوسهم الخلاقة ، وقد كانت قراءاتهم فى أدب الرومانسيين متنفسا لاحساسهم بغربتهم وحنينهم الى أوطانهم ، وكأنما اعتمد المهجريون على قولة الشـــاعر الفرنسى ده موسيه (اضرب القلب فهنا النبوغ وأشد الأغانى يأسا هى الأجمل) . ولعل روح الرومانسية الصـــافية لا تتضح كما تتضح فى ملحمة الشاعر فوزى المعلوف (على بساط الريح) ، فالشاعر فى ملحمته هذه يضيق بالأرض فيطير فى الفضاء :

فى عباب الفضاء فوق غيـومه　　فـــوق نسره ونجمتـــه
حيث بث الهوى بثغر نسيمه　　كل عطــرة ورقتــــه
موطن الشاعر المحلق منذ البدء　　لكن بروحه لا بجســـمه
أنزلته فيـــه عروس قوافيـــه　　بعيدا عن الوجود وظلمه

فروح الشاعر ليست من هذه الأرض :

لست من عالم التراب وان كنت   تقمصت بالتراب عليه
انت من عالم بعيد عن الأرض   يفيض الجلال عن جانبيه

ويمضي الشاعر صاعدا فى الفضاء حيث يسمع أحاديث الطيور والنجوم والأرواح التى دهشت لمجىء هذا الانسان الى مسارحها وتركه للأرض موطنه العتيد ، فيقول روح من الأرواح عن الشاعر الذى يمثل (الانسان) :

انا عن وصف شره عاجز   والله مهما أفضت فى تبيانه
ما دعوه الانسان من أنسه   لكن دعوه الانسان من نسيانه
نسى الخير حين أوغل فى الشر   فداس الضمير فى عصيانه
ملأت قلبه الأفاعى فلا تسمع   غير الفحيح فى خفقانه
زج بالعلم فى الفضاء طيورا   من جماد يديرها ببنانه
ما بناها الا لهدم المبانى   ولسفك الدماء فى طيرانه

وبعد هذه الجولة ترجع روحه لتدافع عنه أمام الأرواح :

هى روحى جاءت تخلصنى من
غضب العالم الفخور بشمسه
طوقتنى بكل عطف وصاحت
اخوانى رفقا به وببؤسه
هو بالرغم عنه من عالم الأر
ض وان كان تزيا بشكل أبناء جنسه
سكن الأرض مرغما وهو لو خير
ما اختار غير ظلمة رمسه

وأخيرا يعود الشاعر الى الأرض :

واذا بى أهوى الى الأرض وحدى
بعد حريتى أكابد رقا
تركتنى روحى وعادت لمأواها
تشق الشعاع فى الجو شقا
فرأيت اليراع قربى يواسينى
ويبكى لما لقيت وألقى

فالشاعر يثور على قيود التراب ويتمنى الموت ليخلصه من ماديته حتى يعود روحا أثيريا ، ويهاجم الانسان على لسان روح من الأرواح ، فيندد بشره وختله واختراعاته الجهنمية ، ثم يعود بعد هذه الرحلة ليبكى ما كان فيه من سعادة متحسرا على عودته الى الأرض ، وأخيرا يناجى قلمه الذى طالما لجأ اليه ويبثه آلامه وأشجانه ، وينهى ملحمته الصغيرة ذات الأربعة عشر نشيدا بهذه المناجاة :

يا يراعى رافقت كل حياتى
فارو عنى ما كان حقا وصدقا
أنا لم ألق مثل صمتك صمتا
حولته عرائس الشعر نطقا

و (على بساط الريح) كما نرى ملحمة صغيرة تتضح فيها الرومانسية المهجرية وهى تقوم على المفاضلة بين الروح والمادة ومضمونها العام تشاؤمى حزين . وهكذا كانت الرومانسية اتجاها عاما كما نراها ممثلة في هذه الملحمة

الصغيرة . ونستطيع أن نحدد الخطوط الفرعية التى ترسم خصائص الشعر المهجرى فيما يأتى :

١ ـ النزعة الانسانية ٢ ـ النزعة التأملية
٣ ـ الهمس ٤ ـ التأثر بالمسيحية
٥ ـ حب الطبيعة وعمق الاحساس بها
٦ ـ استهداف رسالة اصلاحية .

أما الخصيصتان « النزعة الانسانية » و « حب الطبيعة وعمق الاحساس بها » فقد تركنا الكلام عنهما فى هذا المكان ، لأنهما كظاهرتين من خصائص شعر المهجر تعتبران من أوجه التجديد فى هذا الشعر كذلك ، وسنتحدث عنهما حينما نتحدث عن التجديد فى الشعر المهجرى .

النزعة التأملية :

شعراء المهجر جميعا رجال مكافحون ، تركوا أوطانهم الى أرض مجهولة غريبة وهم لا يملكون الا عزيمة صلبة فابتدأوا من أول السلم . هم رجال عصاميون والملكات والمواهب لا تنمو ولا تصقل الا بمكافحة الحياة وتذليل صعابها ، فأى ثروة من تجارب الحياة ورصيد الأحاسيس يملك الشاعر المهجرى ؟ وأى خبرة بالطبائع والأخلاق البشرية وصروف الزمن يعرف هؤلاء الشعراء ؟

يصور لنا الياس فرحات هذه الحياة ، حياة التجول فى

المدن والقرى التي يبتدىء بها المهاجر حيـــاته التجارية البسيطة :

اراقب فى الظلماء ما الليـل يحجب
واقرأ فى الأسحـــار ما الله يكتب
واستعرض الأيام . . يومى الذى مضى
وليـــلا على يومى الذى اترقب
طوى الدهر من عمرى ثلاثين حجة
طويت بها الأصقاع أسعى وادأب
أغرّب خلف الرزق وهو مشرق
وأقســم لو شرّقت كان يغــرب
وأنفــر من طود لواد كأننى
وقد بوّق الداعون للصيد ربرب
ومركبة للنقــل راحت تجرها
حصانان محمـرٌ هزيل واشهب
جلست الى حوذيهـــا ووراءنا
صـــناديق فيها ما يسر ويعجب
حوت سـلعا من كل نوع يبيعهـا
فتى ما استحل البيع لولا التغرب
تمر على صم الصفا عجلاتهـا
فنسمع قلب الصخر يشكو ويصخب

ويصور مسعود سماحة هذه الحياة الشاقة فيقول :

كم طويت القفار مشـيا وحملى
فوق ظهرى يكاد يقصم ظهرى
كم قرعت الأبواب غير مبـال
بكلال وقـر فصـل وحر
كم ولجت الغابات والليـل داج
ووميض البروق شمسى وبدرى
كم توسـدت صخرة وذراعى
تحت رأسى وخنجرى فوق صدرى

ومن هنا نعرف كيف يكافح هؤلاء الشعراء ، وكيف يأخذون الحياة تجربة انسانية ضخمة تمنحهم هذه الطاقة التأملية التى تبدو فى شعرهم .

والاتجاهات الفكرية التى عرف بها الشعر المهجرى لم يعرفها الشعر العربى القديم بهذا الشمول والاتساع ، واذا احصينا شعراءها فى القديم والجديد لا نجد الا أبا العـلاء والزهاوى ، وهى أوضح عند شعراء مدرسة المهجر الشمالى الذين كانوا أميل الى المثاليـة العامة من شعراء المدرسـة الجنوبية الذين عرفوا بالحماسة القومية والنزعة العربية ، وربما كان السبب أن الجنوبيين لم يجـدوا قوما يفوقونهم حضـارة وعلمـا فسـاعدهم ذلك على التفاخر بماضيهم وقوميتهم ، أما الشماليون فقد بهرتهم الحضارة الأمريكية القائمة على العلم وانجازاته ومن هنا كان تفاخرهم بروحانية الشرق وهجومهم على المادية .

وقد كان للوجود والموت وما بعد الموت حظ وافر من اهتمام الشماليين فشاعت فى شعرهم نزعة تأملية تتضح أكثر ما تتضح عند أبى ماضى فى أغلب شعره . ولعل النموذج الطيب لهذا الاتجاه عنده قصيدته (الطلاسم) التى يحاول فيها أن يجيب على الأسئلة التى قلبتها البشرية على وجوهها المختلفة محاولة ادراك سر المعميّات التى تجهلها الا أن أبا ماضى يأخذ موقف الشاك الذى يعترف بجهله ، فلا يملك الا أن يهتف (لست أدرى) :

جئت لا أعلم من أين ولكنى أتيت
ولقد أبصرت قدامى طريقا فمشيت
وسأبقى سائرا ان شئت هذا أم أبيت
كيف جئت ـ كيف أبصرت طريقى
لست أدرى

أترانى قبلما أصبحت انسانا سويا
أترانى كنت محوا أم ترانى كنت شيا
ألهذا اللغز حل ؟ أم سيبقى أبديا
لست أدرى ؟ ولماذا لست أدرى ؟
لست أدرى

أما جبران فهو يدير حوارا بين شاب وشيخ فى (المواكب) ، فيحاول أن يفلسف الحياة من وجهة نظره . يقول على لسان الشيخ :

والعدل فى الأرض يبكى الجن لو سمعوا
به ويستضحك الأموات لو نظروا
فالسجن والموت للجانين ان صغروا
والمجد والفخر والاثراء ان كبروا
فسارق الزهر مذموم ومحتقر
وسارق الحقل يدعى الباسل الخطر
وقاتل الجسم مقتول بفعلته
وقاتل الروح لا تدرى به البشر

والشاعر المهجرى ينظر الى أمور الحياة نظرة تفكيرية تقوم على التأمل والتمحيص :

هبت الريح فملاح شكا
عند مسراها وملاح شكر
ليس فى الريح ولا فى البحر بل
فى هوى الأنفس ما ساء وسر
سفن الأعمار اذ تجرى بنا
ليس فى قاموسها خير وشر
تلفظ الحكم أنانيتنا
ثم تعزوه الى حكم القدر

حتى الغزل وهو بطبيعته ابن الاحساس العفوى تدخل فيه الفكرة العقلية والتأمل الفكرى . يقول ميخائيل نعيمة :

أنا السر الذى استترا
بروحك منذ ما خطرا

ببـــال الكائن الأعلى
خيال العـــالم الأدنى
فصور من ثرى بشرا
أنا العـــبح الذى ائتلقـــا
بقلبك قبل أن خفقـــا
وقبل أن التظت شمس
وشعشع فى السما بدرا
وبرق فى الدجى برقا

وتسير القصيدة على هذا النهج الى آخرها .

ومن مظاهر هذا الاتجاه فى الشعر المهجـرى فكرتان يدور أغلب الشعراء حولهما هما :

(١) وحدة الوجود .

(٢) التناسخ .

وتشترك المدرســتان الشمالية والجنوبيــة فى اعتناق وحدة الوجود ، وتنفرد المدرسة الشمالية فوق هذا اللون بفكرة التناسخ التى تبدو أكثر وضوحا فى أدب جبران .

يقول ميخائيل نعيمه :

كحــل اللهم عينى بشعاع من ضــياك
كى تراك
فى جمـــيع الخلق .. فى دور القبـــور
فى نســـور الجو .. فى موج البحـــار

في صهاريج البراري .. في الزهور
في الكلا .. في التبر .. في رمل القفار الخ

فالشاعر يتابع الشعراء المتصوفة الذين يعتنقون وحدة الوجود ويرون الله حالا في كل شيء . وكذلك يفعل شكر الله الجر :

وعلام القول أن الله قد حجب عنا
هو في النهر وفي الحقل وفي الغصن تثنى
هو في البحر وفي الريح وفي الغابة غنى
هو في الأكوان مذ كانت وفينا منذ كنا

وهذا زميله الجنوبي نعمة قازان يتابع نفس الدرب :

رايت القطرة الصغرى تروّى غلة القفر
وحالت بعد ذا نهرا الى آماله يجرى
فضاعت عند شاطى البحر بين المد والجزر
ولما اشتاقها القفر ولا ري ولا قطر
فرى أحشاءه البحر
رايت الزهرة الزهراء تخطر خطرة العجب
يساقيها نسيم الصبح كاسات الندى العذب
وهب الريح تذريها وريقات على العشب
فجن الترب يغذوها وسح الغيث يسقيها
وعاد الريح يذريها
من زهر الى ترب الى زهر الى ترب

ويقول نعيمه فى (زاد المعاد) :

« ان القدرة التى ندعوها الله هى الكل فى الكل لا حالات فيها ولا صفات لها . ولا حقيقة الاها ولا وجود لشىء الا فيها . فان هى أماتتنى فكأنها تميت ذاتها لأننى منها وفيها وهل يمحو الله ذاته بذاته ؟ وان هى عاقبتنى فكأنها تعاقب ذاتها وتقتص من ذاتها بذاتها ، وهل يذنب الله الى الله ؟ ان البحر لا يميت قطرة من الماء عندما يستردها من جوف صهريج الصحراء الى جوفه » .

ويقول ابو ماضى :

ران أشرب الصهباء أعلم أننى
شربت صبابات الزمان الذى ولى
وما همسته الريح فى أذن الثرى
وما ذرفت فى الليل نجمته الثكلى
وغصات من ماتوا على اليأس فى الهوى
فياشاربيها هل لمحتم دم القتلى
وان مر بى طفل رأيت به الورى
من المثل الأدنى الى المثل الأعلى
فيا لك دنيا حسنها بعض قبحها
ويالك كونا قد حوى بعضه الكلا

وهكذا تلقف شعراء المهجر وحدة الوجود فلونوها بهذ الأصباغ الشعرية مرتفعين بها الى نفس الأوج الذى وصل

اليه شعراء المتصوفة . أما التناسخ فرائده فى الشعر المهجرى جبران خليل جبران الذى يقول فى (النبى) :

الوداع .. الوداع
يا أبناء أورفليس
قد غربت شمس هذا اليوم
وأغلق علينا أبوابه كما تغلق زنبقة الغور أوراقها
على غدها
فكل ما أعطيناه هاهنا سنحتفظ به
واذا لم يكن كافيا
لسد حاجاتنا
فاننا سنأتى ثانية الى هذا المكان ونمد أيدينا .
معا لمن أعطانا
ولا تنسوا اننى سآتى اليكم مرة أخرى .
فلن يمر زمن قليل حتى يشرع حنينى
فى جمع الطين والزبد لجسد آخر
قليلا ولا ترونني .. وقليلا ترونني
لأن امرأة أخرى ستلدنى

فالحياة تنتهى لتعود فى صورة أخرى وربما يتشكل الانسان فيكون زهرة .

وأبو ماضى يجيب على أسئلة حبيبته مؤكدا عودتهما بعد الموت فى صورة أخرى :

لا تجزعى فالموت ليس يضـــيرنا
فلنـــا اياب بعـــده ونشـــور

ثم يقول :

فاذا طوتنا الأرض عن أزهـــارها
وخـــلا الدجى منا وفيـــه بدور
فســـترجعين خميـــلة معطارة
أنا فى ذراهـــا بلبـــل مســـحور
يشـــدو لها ويطير فى جنباتهـــا
فتهش اذ يشـــدو وحين يطير

ولقد أثار هذا الاتجاه نحو وحدة الوجود والتناسخ اعتراض بعض النقـــاد وسخريتهم ، ومن أمثلة ذلك قـــول مارون عبود (أما الأغراض الرئيسية عند مدرسة المهجر فأكثرها يتصل بالمشاكل الدينية ويجنح الى احياء مذاهب هرمة شائخة قوامها وحدة الوجود ، فقعدوا يجترون ماعند القـــائلين من آراء وينظفون الأكفان الصـــوفية ويكوونها . فالدودة أخت لنا والغراب ابن عمنا والطيور والحيوانات شريكة لنا فى الرزق ، أما عمليا فنصلى الوروار نارا حامية اذا حام على خلية نحلنا ونقتل البقرة والحمارة اذا اغتالت ورقة من أغصان جنينتنا ..) .

الهمس :

يغلب على شعرنا العربى القديم الأسلوب الخطابى ذو الرنين والموسيقى العالية ، وقد انحدر الينا ذلك الأسلوب

عبر القرون ، وقد كان ذلك الأسلوب شيئا طبيعيا بالنسبة للشعراء القدامى ومرجعه أن الشاعر القديم كان يقول القصيدة ولا يكتبها كما يفعل شاعر اليوم ، ومن هنا أخذ الشاعر القديم وضع الخطيب والمنشد ، والخطابة والانشاد يجران الى النبر المرتفع والايقاع العالى ، ولقد ظل هذا الأسلوب الخطابى سائدا الى سنين قليلة (وما زلنا نجده عند شعراء المدرسة القديمة المعاصرين) وشعراء المهجر من أوائل شعرائنا المحدثين الذين طرحوا الموسيقى النحاسية المألوفة فى شعرنا كله ، وانصرفوا الى التعبير البسيط الأليف دون اهتمام بقوة أسر أو متانة حبك أو مراعاة نظير او توشية القصيدة ببعض ألاعيب المحسنات البديعية . والدكتور محمد مندور هو أول من وقع على هذه الظاهرة فى شعرهم وأشار اليها وأسماها أسلوب (الهمس) . يقول معللا لهذه التسمية :

(وقع اختيارى على بعض قصائد وكتابات لأدباء المهجر واحسست فى أدبهم من الصدق والألفة ما وقع فى نفسى موقع الأسرار التى يتهامس بها الناس . وأكبر الظن أن الكذب فى التهامس أقل بكثير منه فى الجهر ، ولربما كانت هذه الحقيقة النفسية هى السبب الأول فى تسميتى لهذا الأدب بالأدب المهموس) .

ان شعراء المهجر قد لجأوا الى أسلوب تعبيرى أقرب الى لغة الحياة ، أسلوب بسيط أليف لا حذلقة فيه ولا

ادعاء وهو اسلوب يقوم على استخدام اللفظة المألوفة (غير المبتذلة) ولهذا كانت لهذه الألفاظ قوتها التأثيرية الموحية لارتباطها بنفوسنا فاللفظ المألوف أقدر الألفاظ على دفع مشاعرنا الى التداعى ، وهو فى ألفته وهمسه الحنون يخاطب العواطف والوجدانات لا الأسماع والأذهان ، ومن هنا كان الاحساس بشعر المهجريين ـ كما يقول مندور ـ كأنه آت من أعماق الحياة مثله مثل نواقيس تلك المدينة التى جرت احدى أساطير بريطانيا الفرنسية فيما ـ يحدث رينان ـ بأن المياه ابتلعتها ولكنها لم تسكت أجراس كنائسها التى تدق من حين الى حين وبخاصة عندما يستجم البحر فيتسقط أهل الشاطىء نغماتها المقدسة .

ومرجع أسلوب الهمس ـ فى رأينا ـ هو أن حياة المهاجر التى تقوم على الكفاح والمنافسة فى ميادين التجارة ، تجعل عودة الشاعر المهجرى الى نفسه حينما يخلو اليها أشبه بهذا البحر الذى يستجم بعد ثوران ، فالشاعر فى هدأته الشعرية يعيش على الذكريات فيعود الى القرية والأهل والأصدقاء وملاعب الطفولة ، مصورا حياته الماضية ، متنفسا بهذا الحنين اللاعج الى وطنه الأول ، والرجوع الى الذكريات وتصوير الحنين وما يدور فى هذا الاتجاه من المشاعر لا يلائمه من أساليب التعبير الا هذه الموسيقى الهامسة الوادعة التى تتفق وجو الذكريات .

يقول الياس فرحات متذكرا أيام صباه :

طفولتى لله ما أحلاها تجدد الآمال بى ذكراها
كأنها حديقة رياها تحرك الرمة فى مثواها
وترجع النفس الى رضاها

ترجعنى الذكرى الى الكسارة الى مقر الحب والطهارة
الى اجتماعى ببنات الحارة نلعب طورا بالحصى وتارة
يشغلننى معهن بالصنارة

وطالما جعلننى عريسا واخترت احداهن لى عروسا
ثم يزين لها الملبوسا بالريش حتى تشبه الطاووسا
وتطرب العيون والنفوسا

يصنعن لى شواربا من صوف يجززنها من الية الخروف
ويبتدئن بالغنا اللطيف والرقص والنقر على الدفوف
وكلها من تنك معروف .

ويقول جبران بعنوان (بالله يا قلبى) :

بالله يا قلبى أكتم هواك
وأخف الذى تشكوه عمن يراك
تغنم
من باح بالأسرار يشابه الأحمق
فالصمت والكتمان أحرى بمن يعشق
بالله يا قلبى اذا أتاك
مستعلم يسأل عما دهاك
فاكتم

وهكذا يعبر شعراء المهجر بأسلوبهم الهامس الأليف الذى يتيح للفظة المألوفة جوها الصادق وأثرها الموحى .

ويجرنا الحديث ـ ونحن بسبيل الكلام عن أسلوب التعبير ـ الى مناقشة هذه التهمة التى ألصقت بشعراء المهجر من أنهم لا يأخذون أنفسهم بالمحافظة على اللغة وقواعدها فيما يكتبون من أدب ، ومنذ سنوات قامت مناقشات حول أدب المهجر وكان حجة خصومه ضعفه اللغوى وخروجه على التقنينات وحريته الجامحة فى الاشتقاق واستعمال كلمات لا تمت الى العربية بصلة .

أما شعراء المهجر فلم يفت فى عضدهم هذا النقد ؛ فتابعوا دربهم غير مبالين ، وكانت لهم فلسفة خاصة نادوا بها وبخاصة جبران خليل جبران الذى قال : ان اللغة للافهام لا للحذلقة ومن آرائه فى هذا الموضوع مقاله (لكم لغتكم ولى لغتى) وهو يثور فيه على أدب البرقشة والزخرفة داعيا الى أسلوب بسيط يخاطب الروح ، والحق يقال ان كثيرا من شعراء المهجر يقعون فى أخطاء كثيرة نحوية وصرفية ، ولكن مما يدعو الى الاعجاب بهم علمنا أن أغلبهم لم يتم دراسته الابتدائية وبعضهم ثقف نفسه بنفسه وبعضهم لم يدرس النحو على الاطلاق ولكنهم يكتبون العربية الصحيحة بقوة السليقة والطبع ووقوعهم فى بعض الأخطاء التى لا يسلم منها حتى شعراء العربية الأوائل لا يقلل من أهمية انتاجهم . ألا يدعو الى الاعجاب علمنا أن الياس فرحات ترك

المدارس والتعليم فى سن العاشرة سعيا وراء القوت وهو وزميله رشيد الخورى لا يعرفان العروض . وكذلك كان امين الريحانى الذى علم نفسه بنفسه ، فهو لم يتلق علومه فى معاهد رسمية كما يقول هو نفسه فى مقدمة كتابه « ملوك العرب » .

يقول الياس فرحات :

يقولون عمن أخذت القريض ومِمَّن تعلمت نظـم الدرر
وأين درست العروض وكيف تلقيت هـذا البيان الأغر
وما كنت يوما بطـالب علم فانا عرفناك منـذ الصغر

ومن هنا كان أدب المهجر أدب نبوغ فطرى وعصامية مكافحة لا أدب جامعات ومعاهد .

يقول شفيق معلوف (لا يسعنا وقد رافقنا عن كثب حياة الشعراء والكتاب فى هذا المهجر ، الا أن نجهر بما لهم من فضل عظيم فى جهادهم الأدبى ، فلولا أن داء الأدب متفش فى أعراقهم متغلغل فى عظامهم ، لما طلعوا على الفـن بأثر ولا سخوا على الفكر ببارقة ، حيث لا مجال الا لجولان الأرقام فى الرءوس ودوران الرغيف أمام الأبصار وقعقعة الحديد فى المسامع ، وطالما سمعناهم أو رأيناهم بأم العـين كادحين جادين يقذفون بأنفسهم فى مطارح الغربة ضاربين فى كل مجهل سعيا وراء العيش) .

وأمام هذه المعوقات وفى هذه البيئة الأعجمية وقف هؤلاء الشعراء المكافحون رافعين علم العربية شامخا ، منادين

بتحرير الأسلوب من كل قيد ، وكانت دعوتهم من أسباب تحرر الأدب العربى فى الشرق سواء أكانت هذه الدعوة مقالا أو بحثا أو نتاجا تتضح فيه هذه الدعوة بصورة عملية .

يقول نعمة قازان :

وقلت وقلت وللدهر قول   وليس على الدهر من حجة
حلفت بأمى لا ناكثـــا   ويالك بالأم من حلفـــة
اذا فتـــح الله يوما علىّ   (رفعت) البناء على الكسرة
أقاس النحاة حدود الزمان   ومرمى خيـــالى وعقـليتى
لقـــد حددوها لأفكارهم   فضاقت وزمّت على فكرتى

ويقول مرة ثانية :

لئن عاق دربى الى الله لفـــظ
همزت جوادى يســـير الخبب
وجوّزت فى الصرف ما لا يجوز
وأوجبت فى النحــو ما لا يجب

الا أن ثورة شعراء المهجر الشمالى كانت أعنف وأشد ، فالجنوبيون ظلوا محافظين متمسكين بالتقنينات الموروثة وكان تجديدهم ضئيلا اذا قيس بالألوان المتباينة التى لونت شعر الشماليين الذين أثروا الشعر العربى برؤية شعرية فيها الجدة والابتكار وان عجزوا عن التجديد فى الشكل . الا أن رغبتهم فى استحداث قالب جديد وعجـــزهم عن ابتكاره جعلهم يميلون الى استخدام الموشحة على اعتبار أنها قالب

مستحدث فيه التنويع النغمى الذى يهرب من الايقاع الواحد المطرد .

وكأنهم ــ كما قال بعضهم ــ يخلقون « الأندلس » الجديدة وان كان الفارق بين أدبهم وأدب أجدادهم الأندلسيين كبيراً من حيث الظروف والنشأة ، فالأدب الأندلسى ــ كما يقول سامى الكيالى ــ قد نما فى ظلال القوة العربية التى دخلت أسبانيا غازية قوية ولكن أدباء المهجر دخلوا أمريكا مغتربين مسترزقين .

وقد فتحت الموشحة أمام المهجريين باب التصرف والابتكار كما نرى فى مقطوعة لنسيب عريضة (النهاية) التى يقول فيها :

كفنوه
وادفنوه
أسكنوه
هوة اللحد العميق
واذهبوا لا تندبوه
فهو شعب ميت ليس يفيق !

التأثر بالمسيحية :

غالبية شعراء المهجر ــ ان لم يكن كلهم ــ من المسيحيين ورجوعهم الى الانجيل وتأثرهم به لا تبرره ديانتهم المسيحية ، فنحن لا نرى هذا التأثير فى شعر المسيحيين من

أهل الشام المقيمين به ، والسبب ـ كما يبدو لنا ـ هو أن المهاجر الذى يترك وراءه الوطن والأهل يحس احساسا قويا بغربته ، والغربة تشعر المهاجر بضآلته وبخاصة فى هذا المجتمع الصاخب فى أمريكا ، وهو على الرغم من مسيحيته وعيشته بين مسيحيين يحس بهذه الغربة التى تدفعه الى البحث عن سند روحى لا يجده الا فى كتابه المقدس الذى تناول الحياة ومشاكلها بروح المحبة والتعاطف والرحمة ، وكأن المهاجر يود لاشعوريا أن تسود هذا المجتمع الجديد الذى يعيش فيه كل هذه التعاليم الانسانية من محبة وتراحم واخاء ، هو فى حاجة الى مجتمع يأخذ بهذه التعاليم ليحس انه لبنة متجانسة فى بناء هذا المجتمع . واتجاه المهاجر ـ بطبيعة وضعه هذا ـ لا يجد متنفسا الا فى كتابه المقدس الذى كانت تعاليمه الروحية ذات أثر بعيد فى نفوس شعراء المهجر ، فظهرت فى شعرهم روح الانسانية والتعاطف والمحبة .

وها هو نعمة قازان يمسك بهذا الخيط الروحى فينادى بالحب محتقرا استعمال القوة :

يا فاتح القدس خل السيف ناحية
السيف بالسيف مغلوب ولو غلبا [1]

---

(١) من قصيدة يعارض بها قصيدة شوقى فى مشروع ٢٨ فبراير التى يقول فيها مخاطبا لورد اللنبى :

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا   وفاز بالحق من لم يأله طلبا

السيف ينبـــو فلا حـق يدوم به
قد جرّد الله ســـيفا ماضـــيا فنبا
والســـيف يقطع جسما لا حياة له
وليس يقطـع ايمانا اذا وثبـــا
ان كنت للحق ســـيفا كن ضحيته
لم يظفر الحق الا عنـــدما صـــلبا
الحـق لله والدنيـــا مجـــاهدة
وان بالحب لا بالحق من غلبـــا

والشاعر ها هنا يأخذ اتجاهه فى هذه الأبيات من قول الانجيل (سمعتم انه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فاقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ومن سخّرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين) .

ويتابع هذا الدرب ممسكا نفس الخيط الشاعر الياس فنصل الذى يتكىء على الاصـحاح الخامس « سمعتم انه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم أحبوا اعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا الى مبغضيكم ، وصلوا لاجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم » .

فيقـــول :

عدوى كنت مغرورا بنفسى وكان الصاب فوق شراب كأسى
وكنت أود أن يزداد بؤسى لأبدل نـــور آمالى بيـــأس

ولكنى جنحت الى الصــواب وملت عن الأسنّة والحراب
وقابلت الاهانة بالثـــواب فخففّت شقوتى ونأى عذابى
وعفت مواقفى وازددت عطفا

عدوى كل سطر من سطورى يزف اليك ما يحوى شعورى
فصافحنى ودع نزق الشرور ونم ان شئت مرتاح الضميرٌ
قرير العين ليس يخاف صرفا

أما جبران فهو أب المحبة وأستاذ المتأثرين بالمسيحية ، وله فى هذا الاتجاه شواهد كثيرة ، ويكفى أن نذكر هنا من شعره المنثور قوله (قد طالما سمعتكم تتخاطبون فيما بينكم عمن يقترف اثما كأنه ليس منكم بل غريب عنكم ودخيل فيما بينـــكم ، ولكننى الحق أقول لكم كما أن القـــديس والبار لا يستطيعان أن يتساميا فوق الذات الرفيعــة التى فى كل منكم ؛ هكذا الشرير والضعيف لا يستطيعان أن ينحدرا الى أدنى من الذات الدنيئة فى كل واحد منكم ، وكما أن ورقة الشجر الصغيرة لا تستطيع أن تحول لونها من الخضرة الى الصفرة الا بارادة الشجرة ومعرفتها الكامنة فى أعماقها هكذا لا يستطيع فاعل السوء بينكم أن يقترف اثما بدون ارادتكم الخفية ومعرفتكم التى فى قلوبكم) .

ومثلما وجه المسيح النصيحة والدعوة الى المحبة ، يأخذ جبران لنبيه موقف المسيح فى كتابه (النبى) فيوجه الناس ويرشدهم :

« حينئذ قالت له المطرة : هات لنا خطبة فى المحبة فرفع

رأسه ونظر الى الشعب نظرة محبة وحنان فصمتوا جميعهم خاشعين . فقال لهم بصوت عظيم :

اذا أشارت المحبة اليكم فاتبعوها وان كانت مسالكها صعبة متحدرة ، واذا صكتكم بجناحيها فأطيعوها وانجرحكم السيف المستور بين ريشها ، واذا خاطبتكم المحبة فصدقوها وان عطل صوتها أحلامكم » .

يقول الياس أبو شبكة : (ان جبران متأثر بالأدب العبرانى وقد استوحاه من قراءاته المستمرة لأسفار التوراة ، ففى نثره الموسيقى روح من نشيد الأناشيد لسليمان ، وفى حكمته طابع من سفرى الحكمة ويشوع بن سيراخ ، وفى خياله البعيد مادة من رؤى أشعيا وحزقيال وان فى كتابه النبى لشاهدا على ذلك) .

وشعراء المهجر لا يتأثرون بالتعاليم الروحية التى جاءت فى التوراة والانجيل ـ كما رأينا ـ فحسب ولكن تأثرهم يمتد من المضمون الى الشكل ، فهم يستعيرون طريقة الأداء فى التعبير ، يقول سليمان الحكيم فى الاصحاح الثانى :

(صوت حبيبى .. هو ذا آت طافرا على الجبال قافزا على التلال .. حبيبى هو شبيه بالظبى أو بغفر الأيائل .. هو ذا واقف وراء حائطنا يتطلع من الكوى يوصوص من الشبابيك .

أجاب حبيبى وقال لى : قومى يا حبيبتى يا جميلتى وتعالى ، لأن الشتاء قد مضى والمطر قد زال ... الزهور

ظهرت فى الأرض .. بلغ أوان القصب وصوت اليمامة سمع فى أرضنا .. التينة أخرجت فجها وقعال الكروم تفـــح رائحتهـــا .. قومى يا حبيبتى .. وتعالى يا حمامتى فى محاجىء الصخر .. فى ستر المعاقل .. أرينى وجهك .. اسمعينى صوتك لأن صوتك لطيف ووجهك جميل) .

ويقول جبران :

(هلمى يا محبوبتى نمشى بين الطلول فقد ذابت الثلوج وهبت الحياة من مراقدها وتمايلت فى الأودية والمنحدرات سيرى معى لنتتبع آثار أقدام الربيع فى الحقل البعيد تعالى لنصعد الى أعالى الربى ونتأمل فى تموجات اخضرار السهول حونها .... هيا بنا الى الحقل يا حبيبتى فقد جاءت أيام الحصاد وبلغ الزرع مبلغه وأنضجته حرارة محبة الشمس للطبيعة .. تعالى قبل أن تسبقنا الطيور فتستغل أتعابنا ، وجماعة النمل فتأخذ أرضنا ..) .

وكما تبدو أنفاس نشيد الأناشيد فى شـــعر جبران المنثور نراها أيضا عند ميخائيل نعيمة :

(أفيقى يا حبيبتى .. هو ذا الليل يتعرى على التلال وفى ثنايا جلابيبه المحوكة من الأحلام ثنية يهجع فيها ذاك الحلم النورانى الذى جعلنا أسن من كل أمس وأفتى من كل غد . هو ذا الفجر يقرع من جديد أجران الصباح بالنور حيث لا مندوحة لكل ليل من تعميـــد ما ولد من

اسرار . أفى سـاعديك يا حبيبتى قوة لاقتبـال الحلم العتيد ؟ . . .) .

وتتبلور فى (النبى) لجبران صورة صادقة لأثر الكتاب المقدس فى الأدب المهجرى ، فجبران يتخيل مدينة اسمها (أورفليس) على وزن (أورشليم) أبحر اليها نبيه الذى واجهه الناس بمشاكلهم فكان أن حلها حلا مسيحيا مفتاحه المحبة والسلام كما يقول مارون عبود .

وكذلك فعل ميخائيل نعيمه فى (زاد المعاد) فقد صار على نفس النهج ، يوجه الناس ويرشدهم الى الحياة المثلى ، متأثرا بالكتاب المقدس داعيا الى المثل الروحية التى قام الكتاب المقدس عليها .

« من أجل ذلك أقول لكم : اذا ما نسجتم كساء لانسان فحذار من أن تنسجوا فيه خيطا واحدا من بغضائكم لأنه وان تستر به بدن غير أبدانكم سيخدش ظهوركم . واذا ما خبزتم رغيفا ليباع فى السوق فحذار من أن تخبزوا فيه ذرة واحدة من حسدكم لأنه وان مضغته غير أسنانكم سيكون غصة مرة فى حلاقيمكم » .

وهكذا يستفيد شعراء المهجر من الدين المسيحى فيتابعون تعاليمه ويتأثرون بأسلوبه التعبيرى بل ويتخذون منه موضوعاتهم الشعرية .

فهذا هو الياس قنصل يقول :

العاثرة :
اصحيح اننى بت ـ كما أشهد ـ حرة
أم انا مطلقــة فى الحـــلم واليقظة مرة
سيد الرحمات عفوا فى ذهولى كل عذرى
لست أدرى كيف أبدى لك اجلالى وشكرى
المســيح
أنا لم أنقــذ ترابا حاملا أهواء أمســك
انما حطمت كأسا قر فيها صاب نفسك
كنت من عجزك فيهم نعجــة بين ذئاب
ودفاعى عن حقوق الضعف سطر فى كتابى
أين من ألبسك العـــار باثم لم يشـــنه
انهم لم يلمســـوه فهمو أجبن منـــه
فاذهبى عامـــرة النفس بآلاء الرجاء

والشاعر ها هنا يتكىء على قول المسيح « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولا بحجـــر » فيدير الحوار بين العاثرة والمسيح ليقرر الغفران والرحمة للخاطئين . وكثيرا ما يستعير شعراء المهاجر الصورة الشعرية أو الفكرة من الكتاب المقدس فقد جاء فى انجيل متى مثلا : « فانه يشرق شمسه على الأشرار والصـــالحين ويمطـــر على الأبرار والظالمين » .

فيقول نعيمة عن الجبل (وجارى ـ وياليتكم تعرفونه ـ جار كريم حليم ما مشيت يوما على ترابه أو جلست على

صخوره أو اكلت من ثماره وبقوله وسمعته يسألنى : « من انت ... وما سياستك وما مذهبك ؟ » يجول فى جوه النسر والخفاش فيمد بساطه للاثنين على السواء ليتسلقه الغنى فلا ينحنى أمامه قائلا أهلا وسهلا ، والفقير فلا يعبس فى وجهه وينتهره : « اغرب عنى ») .

ويقول أبو ماضى :

ودينى الذى اختار الغدير لنفسه
ويا حسن ما اختار الغدير وما أحلى
تجىء اليه الطير عطشى فترتوى
وان وردته الابل لم يزجر الابلا
ويغتسل الذئب الأثيم بمائه
فلا اثم ذا يمحى ولا طهر ذا يبلى

ويقول جبران فى كتابه « النبى » :

« وقد طالما سمعتك تقول مبتهجا :

اننى أحب أن أعطى ولكن المستحقين فقط

فهل نسيت يا صاح أن الأشجار فى بستانك لا تقول قولك

ومثلها القطعان فى مراعيك » .

استهداف رسالة اصلاحية :

من أكبر الخصائص العامة التى يلمسها الباحث فى شعر المهجر أنه شعر تقدمى ، يؤدى رسالة كتب على الشاعر أن يؤديها ويحارب فى سبيلها . فلم يعد الشعر فى أيدى هؤلاء الشعراء الكبار أغنية يتلهى بها مخمور ، أو حلية تقدم للتهنئة أو المدح ، ولم يعد الشعر كلاما منمقا يدل على براعة لغوية أو رياضة ذهنية يلجأ اليها الناظمون كما كانت الحال فى الشرق العربى ، ولكنه كان ــ ولا يزال ــ رسالة من حيث الدعوة الى الحق والخير والمحبة والجمال ومحاربة النظم الفاسدة والظلم والرجعية ، ومن هنا كان الشاعر فى نظرهم نبيا وفيلسوفا ومصورا وموسيقيا وكاهنا .

لقد نادى هؤلاء الشعراء بأهدافهم الانسانية ودعوتهم الخيّرة فى مطالع هذا القرن بينما كان أغلب شعرائنا يلعبون بالألفاظ والاستعارات مقلدين الشعر العربى القديم أسلوبا وتصورا واتجاها فكريا .

واذا ذكرت لهؤلاء الشعراء وقفات اصلاحية أو قومية فهى وقفات تكاد تكون نادرة كما أنها تقتصر على الميدان السياسى وليس من شك فى أن الحرية التى يتمتع بها شعراء المهجر فى أمريكا قد أفسحت أمامهم مجال النقد النزيه والتقويم الصحيح فهم بعيدون عن القبضات الحديدية للحكومات الديكتاتورية التى كانت تحكم بلاد الشرق .

وبجانب هذه الدعولت المثالية الروحية التى هدف اليها شعراء المهجر لم ينسوا أوطانهم الأولى ومشكلاتها ، ولذلك كانوا رواد الدعوة القومية والهتفة الاصلاحية ، فمنذ اعلان الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ الى الثورة العربية ١٩١٦ الى اعلان الملكية العربية بدمشق ١٩١٨ الى واقعة ميسلون ١٩٢٠ الى الثورات الوطنية فى العراق والشام وفلسطين ومصر الى الحرب العالمية الثانية وما أعقبها من الاعتراف باستقلال أكثر الأقطار العربية كانت للأدب المهجرى شعرا ونثرا يد تذكر فى المدافعة عن حقوق العرب واذكاء نار الحمية فى نفوسهم ، فهم مع بعدهم عن أوطانهم الأولى وبالرغم من مشاكلهم الخاصة فى بيئتهم الجديدة لم ينقطعوا عن تتبع الحياة فى الشرق فكان لهم فى كل أمر جليل رأى وفى كل ملمة سياسية قصائد وقصائد ، وهنا يقف رشيد الخورى شاعر القومية العربية أستاذا لهذا اللون . يقول مستنهضا الهمم :

أو ليس فى لبنان عرق نابض
أو ليس فى لبنان من متفان
أين التراث .. تراث أبطال الحمى
أين البقية من بنى غسان
لا تنكروها فالدم العربى قد
جلت أصالته عن النكران

ان البزاة وان تناثر ريشها

لم تحص فى الحشرات والديدان

وعلى هذا النهج القوى من الشعور العارم واليقظة الواعية سار الشاعر القروى وتابعه غيره من شعراء المهجر . وليس من شك فى أن الشاعر العربى المهاجر حينما استقرت حاله فى مهجره وابتدأت نفسه تدرك ميزات البيئة الجديدة قارن بين ما رأى من حياة طليقة حرة فيها احترام للفرد وتنظيم لأحوال المعيشة ، وما فى وطنه الأول من ظلم وعبودية وتأخر جرد قلمه مدافعا عن أبناء وطنه داعيا الى الحرية والثورة على التعصب والتأخر والعبودية والخرافات والضعف والفساد وما الى ذلك من الأمراض التى ابتلى بها الشرق . ولم تقف جهود هؤلاء الشعراء على الميدان القومى فقط ــ كما قلنا ــ ولكنها امتدت الى نواحى الحياة جميعا فحاربوا التواكل والضعف واليأس .

أما دعوة شعراء المهجر الى المحبة والحياة الانسانية الروحية فيمثلها كتاب (النبى) لجبران ، أما التعصب الطائفى المعروف فى الشرق وبخاصة فى لبنان وسوريا لكثرة الطوائف الدينية التى تعيش بهما فقد نال نصيبه من تعبيرهم وها هو رشيد الخورى الذى كرس شعره لمحاربته يقول :

صياما الى أن يفطر السيف بالدم

وصمتا الى أن يصدح الحق يا فمى

أفطر وأحـــرار الحمى فى مجـــاعة
وعيد وأبطـــال الجهاد بمـــأتم
بلادك قدمهـــا على كل مـــلة
ومن أجلها افطر ومن أجلهـــا صم

***

ولكننى أصـــبو الى عيـــد أمة
محـــررة الأعنـــاق من رق أعجمى
الى علم من نســـج عيسى وأحمد
وآمنـــة فى ظـــل أخت لمريم
لقد مزقت هـــذى المذاهب شملنا
وقد حطمتنـــا بين ناب ومنســـم
ســـلام على كفـــر يوحد بيننـــا
وأهلا وســـهلا بعـــده بجهنم

ويقول الياس قنصل :

أغض الطرف عن زلات صحبى
وأعفو عن عـــدوى أو حسودى
وان فتشـــت عن دينى فانى
مسيحى . أحمدى . بوذى . يهودى

أما نعمة قازان فهو شـــاعر الحب والحياة الروحية . و (معلقـــة الأرز) أصـــدق مثال لاتجاهه فهى (قصـــيدة

تشريعية جامعة لكل خاصيات الزاد الأدبى الذى ينهض الأمة ويحييها بعد موت . كلها تفاؤل ورحمة وجمال) .

ويتضح تفاؤل قازان واقباله على الحيـاة فيما كتب من شعر ، ويكفينا هاهنا أن نذكر له من « قصيدة الايمان » هذه الأبيات :

صـفقى للحيـاة   هـللى للـردى
ان قطـر الوحول   بعض قطر النـدى
وسبيل الضـلال   من سبيل الهـدى
كيف يخشى الممات   من يحب الحيـاة
كيف يرضى الجمود   ابن هـذا المدى
صـفقى للحيـاة   هـللى للـردى

وهذه الظاهرة خصيصة مطردة فى شعر المهجريين فهم قوم يؤمنون بالحياة مقبلون عليها بنفوس مطمئنة متفائلة راضية عن واقعها مدركة أنه سبيل لما هو أفضل « وهى روح المهاجر الأصيلة » . ولذلك لم تظهر فى شعرهم روح التشاؤم والانهزام الا فيما ندر .

يقول ميخائيل نعيمة من قصيدته « الطمأنينة » :

سقف بيتى حديد   ركن بيتى حجـر
فاعصـفى يا رياح   وانتحب يا شـجر
واسبحى يا غيـوم   واهطلى بالمطـر

واقصفي يا رعـود لست أخشى خطر
سقف بيتي حديد ركن بيتي حجـر

***

من سراجي الضئيل أستمد البصر
كلما الليـل طال والظـلام انتشر

وهكذا وقف هؤلاء الشعراء ضد الروح التشاؤمية داعين الى المحبة والانسانية والبساطة والاقبال على الحياة ، بل ذهبوا الى أن الشاعر يجب أن يحيا فى أدبه قبل كتابته فلا يدعو الى هذه الأهداف العالية وهو غارق فى نقائضها : يقول قازان :

وللشعر صوت بعيد القرار .
اذاماسمعت . . سمعتالعجب
فمن ليس فى نفسه وحـدة
تجـزأ بين الرضى والغضب
ومن عاش مستعطيا راحـة
فليس يجـود بغـير التعب
ومن كان بين الأنام غـريبا
فقل فيه نفس أبت أن تحب
ومن يعبـد الله بالفن جهـرا
ويأتى المحـرم سرا كذب

اذا أدبي لم يعززه فعلي
فللنار .. للنار هذا الأدب

من هذا نرى الى أى مدى يحس شعراء المهجر بقدسية الشعر وفعاليته فى الحياة مؤمنين برسالته السامية وأهدافه النبيلة ، ومن هنا كان منهم المصلح الاجتماعى كأمين الريحانى الذى لم يكتف بالكتابة داعيا الى الاصلاح الاجتماعى والقومى بل طاف بالعواصم العربية داعيا الى الوحدة والنهوض والاقبال على الحياة الحديثة وكان فيهم الكاتب الشاعر المتمرد على الفساد والخرافات والتقاليد البالية كجبران وكان فيهم الشاعر القومى الذى استنهض الهمم وألهب الشعور كرشيد الخورى وكان فيهم المفكر والفيلسوف الانسانى كميخائيل نعيمة الذى نادى بالبساطة والمحبة والاقبال على الحياة وكان فيهم الشاعر الروحى كنعمة قازان الذى نادى بالحب ودعا الى الحياة الروحية الخالصة .

التجديد فى شعر المهجر

مقـــدمة :

كان الشعر العربى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى حالة من الخمول وكانت الأقطار العربية عموما تعانى كبتا شديدا فاستكانت الى الذلة تحت وطأة الاستعمار التركى فشـــاع الجبن والتدهور الخلقى ومـــوت الكرامة . وعاقت الرجعيـــة ورجالها والخـــرافات الدينية والجهل الأقطار العربية عن انتفاضة الحياة .

ولذلك كان الأدب ميتا فى هذه الحقبة من الزمن وكان الشعر اللبنانى فى أواخر القرن التاسع عشر لا يزال شعرا تقليديا فالشعراء يتابعون الطريق الشعرى العربى القديم ، وان كانت النفوس قد أخذت تنطلق تحت تأثير البواعث القومية والاتجاهات الوطنيـــة ، هـــذا فضلا عن انتشـــار المدارس كمدرســـة عينطورة ومدرسة القـــديس يوسف والمدرسة الوطنية والمدرسة الســـورية الانجيلية ومدارس الجمعيات الأهلية كالمدرســـة البطريركية ومدرسة الثلاثة اقمار ومدرسة الحكمة . وجاء الانتـــداب فاحتلت اللغـــة الفرنسية وآدابها المقام الأول فى لبنان .

وفى هـــذه الفترة كان الأدباء المقلدون يبصـــقون آخر

أسنانهم كما يقول أبو شبكة ، وفى هذه الفترة أيضا ظهرت طائفة من الأدباء كان لها الأثر الفعال فى هذه النقلة التى تعتبر خطوة الى تذوق أدب الغرب فقد نقل مارون النقاش مؤسس التمثيل العربى مسرحية (البخيل) لموليير ونقل نجيب الحداد مسرحية (غرام وانتقام) وقصة (غصن البان) عن قصة (رافائيل) للامرتين ونقل أديب اسحاق (أندروماك) وسليم النقاش المسرحيات الأفرنجية الراقية وانصرف طانيوس عبده الى تعريب قصص تلائم ذوق الجمهور وعرب فرح أنطون (پول وفرچينى) و (الكوخ الهندى) و) آتالا (و (تاريخ المسيح) وغيرها من المؤلفات الفرنسية . وفى ظلال هذه النهضة كان الشعراء ينقسمون الى فئتين :

(١) فئة الشعراء المحافظين الذين تابعوا الطريق العربى القديم ويمثل هذه الفئة شاعر كالملاط الذى يقول :

وأرقط رابى المتن مستحصد الشوى
كقنطرة البانى على عمد عبل
خفيف ضبور الوعث تنفى متى عدا
يداه الحصى كالمستطير من النيل

ويمثل الفئة الثانية اسكندر العازار وسليمان البستانى ونقولا رزق الله وسليم عازار والياس فياض ونقولا فياض وأمين تقى الدين وبشارة الخورى .

وتمثل اتجاههم الشعرى قصيدة سليمان البستانى التى يقول فيها :

أفق ولو حينا قبيل الرحيل
لم يبق من صحوك الا القليل
أفق تر شمسك رأد الأصيل
ان آذنت بالعبور عم الظلام
ونمت عارى الشعور بين النيام
وفاتك الحس وسمع الكلام

وكانت مصر تعانى نفس الأزمة الفكرية فالشعراء يتابعون الدرب القديم دون ابتكار فرجعوا الى نماذج العصر العباسى يتابعونها تقليدا ومسخا وسرقة (مثلما كان يفعل شعراء التقليد فى لبنان وكما رأينا فى قصيدة الملاط) فكان البارودى الذى ارتفع بالشعر وأسلوبه الى أوج الأسلوب العربى الخالص وجاء بعده شوقى وحافظ فحاولا شيئا من التجديد فتلونت صور الشعر ولكنها لم تخرج عن الاطار والألوان القديمة وكان الشعر فى أيديهم لا توحيه الا المناسبة العارضة من حرب الى سقوط دستور الى موت أحد الباشوات أو الملوك الى التهنئة بعيد فطر أو التهنئة بختان ! وما الى ذلك من المناسبات التى قتلت العفوية وروح الفن الأصيل الصادق فى الشعر المصرى فاذا أراد الشاعر التجديد وأحب أن يثبت أنه ابن القرن العشرين وصف قطارا أو طيارة !

وهكذا كان الشعر عندنا سجلا للأحداث العامة يسجل افتتاح المؤسسات والحرائق ونشاط جمعية الهلال الأحمر وغلاء الأسعار والزلازل فكأن الشاعر كان يكتب شعره بقلم صحافى لا يهمه الا تسجيل الخبر !

كانت هذه هى حال الشعر فى مصر ولبنان فى مطالع هذا القرن ولكن على الرغم من هذا الجمود المهين والتقليد المقيت ابتدأت شرارة الحياة تلمع فيهما ، ابتدأت فى مصر على أيدى مطران وأبى شادى وشكرى والعقاد والمازنى ، وقد جوبهت ريادتهم بحرب شديدة من الأدباء الحفريين وبعض الشيوخ المتجمدين الذين وقفوا أمام كل حركة تجديدية فى جميع مرافق الحياة المصرية ، ولذلك كانت الدعوات التجديدية عامة (بدعة لم تؤثر عن السلف) والدعوات التجديدية الأدبية (تهجما على اللغة العربية وأدبها) ومن هنا كانت المعارك الطاحنة بين هؤلاء السلفيين ورواد أدبنا العربى الحديث . وقد ساعد على تجميد الموقف ان الشعور العام كان فى هذه الفترة الحرجة من حياتنا يقف ضد كل ما هو غربى ، فقد كان أصحاب القديم يسمون المجددين الداعين الى التحرر والانطلاق والأخذ بأسباب الحياة الغربية « بالمتفرنجين » .

ولعل مما ساعد اللبنانيين على الانطلاق والخروج عن نمطية الروتين التقليدى انهم أقرب اتصالا بالآداب الغربية نتيجة لانتشار المدارس الأجنبية المختلفة التى ساعدت على

ذيوع اللغات الأوربية فى البيئات المسيحية لاطمئنانها الى الحضارة الأوربية ولاتصالها بالمبشرين . ولا ننسى أن أهل الشام جنس معروف من قديم الزمان بالمغامرة واستعدادهم النفسى للتحول (كاستعدادهم للهجرة من موطن الآباء والأجداد الى أى مكان فى العالم) أساس لاحتضانهم التجديد الأدبى ، وما حركات التجديد الا هجرات أدبية تنقل الأدب من حال الى حال .

ويجب ألا ننسى هاهنا أن من أسباب قيام دعوات تجديدية فى المهجر أن الهجرة بما تتيح من امتزاج بين الشعوب واحتكاك بين أساليب الفكر المختلفة تنبه الملكات وتنمى المواهب وتزود المهاجر بتجارب جديدة من الصعب حصوله عليها لو بقى فى موطنه هذا فضلا عن أن شعراء المهجر لم يجدوا بيئات رجعية تقف أمام انطلاقهم مثلما كان يحدث فى الشرق . ومنذ أن ابتدأت تشع خلف المحيط انوار هذا الشعر الجديد أخذ الناس فى الشرق العربى ينافشونه بين متهجم عليه وبين مؤيد له ، وكان نصيب مصر من هذا النقاش هجوما عنيفا شنه مصطفى صادق الرافعى بمجلة المقتطف عام ١٩٢٦ ، وكذلك فعل محمد حسين هيكل الذى قال (يجب أن يتعاون المجدد والمقلد منا والا بقى الفوز فى جانب السوريين المتأمركين وامحت الثقافة الاسلامية) .

وفى وسط هذه الدوامة العاتية دعت الحاجة الى انعتاق

من اغلال الماضى لخلق أدب جديد طليق فتكونت فى المهجر الأمريكى (الرابطة القلمية) التى أحست بالمهمة التاريخية التى ستقوم بها فحددت مفهومها للأدب فى مقدمة قانون الرابطة وهى أول مرة تحدد فيها أهداف أدبية لجماعة من الأدباء فى تاريخ الشعر العربى وهذه المقدمة توضح رسالة هذه الرابطة :

« ليس كل من سطر بمداد على قرطاس أدبا ، ولكل من حرر مقالا أو نظم قصيدة موزونة بالأديب . فالأدب الذى نعتبره هو الأدب الذى يستمد غذاءه من ظلمة الحياة ونورها وهوائها والأديب الذى نكرمه هو الأديب الذى خص برقة الحس ودقة الفكر وبعد النظر فى تموجات الحياة وتقلباتها وبمقدرة البيان عما تحدثه الحياة فى نفسه من التأثير . ان هذه الروح الجديدة التى ترمى الى الخروج بأدبنا من دور الجمود والتقليد الى دور الابتكار فى جميع الأساليب والمعانى لحرية فى نظرنا بكل تنشيط ومؤازرة فهى أمل اليوم وركن الغد . كما أن الروح التى تحاول بكل قواها حصر الآداب واللغة العربية ضمن دائرة تقليد القدماء فى المعنى والمبنى هى فى عرفنا سوس ينخر جسم أدبنا ولغتنا وان لم تقاوم ستؤدى بها الى حيث لا نهوض ولا تجدد » .

ويشارك أمين الريحانى بدوره شعراء الرابطة فى هذا الاتجاه التجديدى فيقول : « من الخطأ أن يظن أن كل ما جاء به عرب الجزيرة انما هو منتهى الفصاحة والبلاغة وأن

استعاراتهم كلها جميلة فى كل مكان وزمان ومن الوهم أن نتصور فى الماضى رب العصمة والكمال كما أنه من الوهم ان نحصر نبوغ زماننا فى احسان لغة مضر وقحطان » .

وبهذه الروح المتحررة التقدمية كتب هؤلاء الشعراء فنهم ويتجلى هذا ــ فى أوضح صورة ــ عند شعراء المهجر الشمالى ... بهذه الروح حملوا مشعل التجديد ولذلك كان جبران ــ وهو أستاذ مدرسة المهجر الشمالى ــ على حد قوله « دولابا يدور الى اليمين بين دواليب تدور الى اليسار » . وهذا وضع طبيعى لا غرابة فيه لأن هؤلاء الشعراء ابتدأوا يقطعون صلتهم بالأدب العربى القديم فابتعدوا عن التعابير الصحراوية التى شاعت عندنا تقليدا وأخذوا يعبرون عن روح العصر بلغة تلائمه .

وليس من شك فى أن التخلص من آثار الكلاسيكية فى حاجة الى نفوس متحررة صافية تستطيع أن تنتصر على الرواسب القديمة وترتفع على النمط المألوف الذى انحدر الينا عبر الأجيال واكتسب قدسية واحتراما فى نفوس الناس .

ومن هنا كانت ثورة شعراء المهجر واشمئزازهم من موميات الأدب والأدعياء ، ومن هنا أيضا نجد جبران يقول : « يعز علىّ أن أرى لغة الأرواح تتناقلها ألسنة الأغبياء ، وكوثر الآلهة يسيل على أقلام المدعين ولست منفردا فى

وهدة الاستياء بل رأيتنى واحدا من كثيرين نظروا الضفدع ينتفخ تمثلا بالجاموس .

الشعر يا قوم روح مقدسة متجسمة من ابتسامة تحيى القلب أو تنهدة تسرق من العين مدامعها . أشباح مسكنها النفس وغذاؤها القلب ومسرحها العواطف وان جاء الشعر على غير هذه الصورة فهو كسيح كذاب » .

ومن هنا أيضا ثورتهم على شوقى لأنه كان يمثل المدرسة القديمة مفهوما واتجاها ... يقول نعمة قازان فى « معلقة الأرز » :

دعاة الأمير سـلام عليكم
من الخارجين على الدعـوة
لقد طلع الفجـر من غمده
وبان اللبـاب من القشرة
ودار الزمان .. أما من يد
تعـوق الزمان على الدورة
ومات الأمير عليه السـلام
فماذا لديكم من الجثة ..؟!

وهذا شاعر مصرى مهاجر هو محمود الشريف يقول :

يقولون شوقى أمير القريض
فقلت أمـير زمان غـبر
زمان يعيدون ما كان يوحى
الى قالة الشـعر عهد الوبر

فلحظك ليلى كلحـــظ المهى
ووجهك هنــــد كوجه القمر
وأيام تقتـــل تلك المعـــانى
وتقبر فى لغـــة من حجـــر

ويتهكم ميخائيل نعيمة على شـوقى أيضا فيقول فى قصيدته التى مطلعها :

أنادى الرسم لو ملك الجوابا
وأجـــزيه بدمعـــى لو أنابا

يتهكم ميخائيل نعيمة على شوقى فى « الغربال » قائلا : « وقفت قليلا لأتأكد مما اذا كنت أطالع قصيدة جاهلية أم مصرية ، اذ تبادرت فى الحال الى ذهنى أبيات كثيرة فيها « أطلال » و « رسوم » و « دموع » و « لعبة أطلال » .

وعلى الرغم من هذه الموجة التجديدية كان فى المهجر بعض النقاد ذوى الأذواق الكلاسيكية وها هو أحدهم يعلق على البيت الآتى فيقول :

مات الصباح ابن النهار فلا تقولى كيف مات

(والموت للأحياء واستعملها الافرنج دون العرب وقد قال لامارتين مات النهار ، وانى من رأى الشاعر أبى ماضى والعصر عصر تطور وارتقاء ـ الانفلات دون ما طفرة عن قيود الأوائل لكننى لا أسلم معه باطلاق العنان لأنفسنا) ولكن بعد قبوله لمبدأ التجديد نجد أنه لم يستطع أن يستسيغ « مات النهار » على بساطتها فيقول (ولا يؤخذ

من قولى النزول على رأيه فى استعارته الموت لغير ذى روح بل انى أرسلت كلمتى بنظرة عامة) .

وعلى قلة النقاد الذين يذهبون هذا المذهب فى المهجر فان أدباء المهاجرين المجددين لم يهتموا بهم . وهنا نقف لنسأل الى أى مدى جدد شعراء المهجر فى الشعر العربى ؟ والاجابة على هذا السؤال تعـــرفنا أن تجديدهم كان فى المضمون لا فى الشكل .. كان فى المعانى والأخيلة أكثر منه فى طريقة الأداء ، فقد تفننوا فى الأغراض وطريقة التناول وترفعوا بالشعر عن التفاهات معبرين بلغة بسيطة عصرية عن تجاربهم وأحاسيسهم ويمكننا أن نحدد هذا التجديد فى الخطوط الآتية :

١ ـ النزعة الانسانية .

٢ ـ النزعة التأملية .

٣ ـ وحدة القصيدة .

٤ ـ حب الطبيعة وعمق الاحساس بها .

٥ ـ الشعر المنثور .

٦ ـ الرمزية .

أما النزعة التأملية فقد سبق الكلام عنها عند حديثنا عن خصائص شـــعر المهجر وأما بقيـــة نواحى التجـــديد فسنوضحها فيما يلى :

النزعة الانسانية :

لم يعرف الشعر العربى النزعة الانسانية التى ترتفع على المكان والزمان والجنس الا فى أبيات نادرة لا تذكر وأول من لونه بهذا الاتجاه المثالى هم شعراء المهجر ، فالروح القبلية التى ظلت متغلبة على الشاعر العربى سدت أمامه منافذ الاحساس الانسانى الشامل فكان الخير ما يصيب القبيلة دون سائر الناس والمجد ما تناله القبيلة دون القبائل الأخرى وهكذا كانت نظـــرة الشاعر محصورة فى هـــذا الاحساس القبلى ، فلم تمتد عواطفه خارج نفسه وقبيلته لتشمل الناس جميعا ، وقد ظلت هـــذه المشاعر الضيقة مادة الشـــعر فعاد الفخر بالنفس والقبـــيلة والنسب والشجاعة والكرم وما الى ذلك من الأحاســيس الفردية الانية الى أيام البارودى وشوقى وحافظ .

أما الشاعر المهجرى فقد انتصر على فرديته وارتفع فوق الطائفية معتنقا الانسانية دينا :

اذا ســـاءلت عن نسبى فانى
شريف لا يعى معنى الحقـــود
معين للفقـــير متى تجنى
عليه الدهـــر فى فقـــر شديد
أغض الطرف عن زلات صحبى
وأعفو عن عـــدوى أو حسودى

وان فتشــت عن دينى فانى
مسيحى. أحمدى. بوذى. يهودى

يقول جبران : « أحن الى بلادى وأحب سكان بلادى ولكن اذا ما هب قومى مدفوعين بما يدعونه وطنية وزحفوا على وطن قريب وسلبوا أمواله وقتلوا رجاله ويتموا أطفاله ورملوا نساءه وسقوا أرضه بدماء بنيه وأشبعوا ضواريه لحوم فتيانه كرهت اذ ذاك بلادى وسكان بلادى ...

أنت أخى وكلانا ابن روح واحد .. قدوس كلى . وأنت مماثلى لأننا سجينا جسدين من طينة واحدة . وأنت رفيقى على طريق الحياة.ومسعفى فى ادراك كنه الحقيقة المستترة وراء الغيوم . أنت انسان وقد أحببتك يا أخى » .

هذه الروح الانسانية نفسها هى التى هتفت على لسان جبران أيضا :

ليس فى الغــابات حر لا ولا العبــد الذميم
انمــا الأمجــاد سخف وفقــاقيع تعــوم
فاذا ما الغصــن ألقى زهره فوق الهشيم
لم يقل هــذا حقــير وأنا المــولى الكريم

فالمساواة شعار الحياة الطليقة فى الغاب لا فرق بين انسان وانسان .

أما ميخائيل نعيمة فهو يطلب أن يكون قلبــه واحة تسقى القريب والغريب :

كحل اللهم عينى بشـــعاع من ضياك كى تراك
واجعل اللهم قلبى واحة تسقى القريب والغريب

واذا ما جحدت هذه السماحة والانسانيــة فالشاعر لا يعرف الحزن واليأس فهو راض بعطائه ولا يقابل الجحود بالجحود فان السهم الذى يرميه ويصيب به انسانا آخر يصيبه هو :

علوت يومـا متن جـــوادى
ورشت ســهما على الأعادى
فخـــر ميتـــاً تحتى جـــوادى
وعاد ســـهمى الى فـــؤادى

ولا ننسى هاهنا أن نشير الى قصيدة ميخائيل نعيمة الانسانية (أخى) وان كانت بلقاء مشهورة ، ومن هنا كانت هذه النداءات الانسانية التى لم تعرف فى الشعر العربى بمعناها الانسانى الكبير وكثرتها التى تلفت نظر الباحث .. يا أخى يا رفيقى ، يا صديقى . يقول أبو ماضى :

يا أخى لا تشـــح بوجهك عنى
ما أنا فحمــــة ولا أنت فرقد

ويقول نسيب عريضة :

يا رفيقى على طريق الحزانى
سر فان القضـــاء أقصى مدانا

ويقول نعيمة :

أخى ان ضج بعد الحـــرب غربى بأعماله

وتتبلور هذه الروح الانسانية كلها لتسكن قصيدة ندرة حداد التى تبدأ بنفس النداء الحنون :

يا أخي الساعى لنيل المجد خفف عنك جمحك
أنت لا ترضى سوى نفسك ان أحرزت فتحك
سر معى فى الأرض تنسى المال والجاه و «طمحك»
أنا راض بالعصا يا أيها الحامل رمحك
وسأرضى خبزك الأسود فى الحب وملحك
وسأنسى جرح قلبى كلما شاهدت جرحك
وأرى ليلك ليلى وأرى صبحى صبحك
واذا أخطأت نحوى فأنا الطالب صفحك

***

سر معى فى الأرض واعمل حسنا تبلغ نجحك
لا تدع غيرك يجنى لك فى دنياك ربحك
ان أعمالك سفر فاملأن منهن لوحك

* * *

أما نعمة قازان فقلبه الوسيع المحب يجعل العدو اللدود صديقا ودودا :

يا عدوى اللدود يا صديقى الودود
نحن لولا الحدود ما عرفنا الحقود
قد كسرت القيود هل كسرت القيود ؟
اننى فى الطريق بانتظار الرفيق
وطريقى قتاد أنت فيها الورود

يا عدوى اللدود يا صديقى الودود
ان قصرى تراب ورياشى خشب
فعلام الفخار وعلام الحسب
ولماذا العقار ولماذا الذهب
زاد عينى ضياء زاد روحى هواء
لن تنال المنون من تراثى أرب

ويبهر الكرم شاعرا مهجريا هو نعمة الحاج فينظر اليه من زاوية لم يعرفها — على ما نظن — شاعر عربى على الاطلاق فى تاريخ الأدب العربى على كثرة حديثهم عن الكرم والكرماء فهو لا يمدح شخصا معينا بهذه الصور والمعانى العقلية التى أتى بها شعراء العربية فى هذا الباب الذى يعد من أكبر أبواب الشعر العربى ولكنه يرتفع فوق هذه الفردية الضيقة فيتناول الكرم لا كصفة من صفات انسان ستحب فتمدح أو تمدح ليؤخذ العطاء ولكنه يتناوله كموضوع انسانى عام .

يقول من قصيدة بعنوان (كف الكريم) :

بين الأزاهر فى الربيع كف تسود على الجميع
كف لها نفح الزهر ونتاجها أشهى ثمر
وبها استوى المعنى البديع للفكر يحلو والنظر
كف اذا ارتفع الندا كانت لداعيها صدى
كف السماحة والندى سلمت على طول المدى
كف الكريم

اما رشيد الخورى (الشاعر القروى) فهو مع وقوفه على رأس شعراء القومية العربية لا ينسى انسانيته كشاعر مهجرى وتبدو هذه الانسانية فى قصيدته الحلوة (الفقير) :

جاء الفقير الى ذات عشية
يشكو الزمان كسائر الفقراء
قال (المروءة) .. لى ثلاثة أكبد
ناموا على قدر الحصى والماء
فنفحته شيئا فسالت جمرة
من عينه وقعت على أحشائى
ومضى فبكتنى ضميرى قائلا
أقللت .. بئس عواطف الشعراء
وذهلت عن فقرى وطرت وراءه
خجلا أحاول أن أزيد عطائى
ولكم فقير يا لمية بائس
خففت بعض شقائه بشقائى
فوجدته والحزن يكسو وجهه
بسواده .. فى القاعة الخضراء
شاء المعثر أن يجرب حظه
بدريهمات أخيه فى البأساء
حتى اذا خسر الذى أعطيته
لعشائه .. لعن الفقير مسائى

وبجانب هذه المشاعر الانسانية السامية من عطف على الفقير الى دعوة الى المحبة والمساواة والتآخى هاجم شعراء المهجر الظلم والتكبر والفخر بالثروة والنسب تلك التى يظن بعض الناس أنها ترفع بعضهم فوق بعض .

ولن ننسى ها هنا قصيدة أبى ماضى المعروفة بعنوان (الطين) ومنها قوله :

نسى الطين ساعة أنه طين حقير فصال تيها وعربد
وكسى الخز جسمه فتباهى وحوى المال كيسه فتمرد
يا أخى لا تمل بوجهك عنى ما أنا فحمة ولا أنت فرقد
أنت لم تصنع الحرير الذى تلبس واللؤلؤ الذى تتقلد
أنت لا تأكل النضار اذا جعت ولا تشرب الجمان المنضد
أنت فى البردة الموشاة مثلى
فى كسائى الرديم تشقى وتسعد

ويقول الشاعر القروى عن المتكبرين :

سل المتكبرين هل استشيروا
بمولدهم وهل أمنوا الحماما
وهل كشفوا من الأكوان سرا
وهل عرفوا البداءة والختاما
وهل جبلوا جسومهم بخمر
وهل نحتوا من العاج العظاما

وهكذا يقف شعراء المهجر روادا للنزعة الانسانية فى الشعر العربى ، ولا ريب أن هذا الاتجاه المثالى يرجع الى

احساس المهاجر بغربته وحاجته الى التآخى بينه وبين الناس فهو يود لاشعوريا أن يستعيض بمواطنيه الجدد عن قومه وأحبابه العائشين وراء المحيط وأن يأخذوا من كيانه الوجدانى منزلة هؤلاء الأحباب .. فالمهاجر الذى يعيش فى بيئة غريبة عنه فى حاجة الى العطف والمعاملة السمحة حتى يثبت أقدامه فى هذه الأرض الجديدة ويطمئن الى هذه الحياة التى أقبل عليها مختارا فهو يحس كأنه ذرة تائهة فى محيط ولذلك فهو ينادى بهذه الانسانية .

ولا ننسى ها هنا أثر المسيحية التى يعتنقها أغلب المهاجرين من الشعراء والتى لم تقم الا على التآخى والمحبة والسلام فقد كانت من العوامل المساعدة على تبلور هذا الاتجاه الانسانى عند شعراء المهجر :

ألسنا كلنا غرباء نشقى بأرض أنبتت عطفا ورفقا
أبالشحناء والعدوان نرقى الى الاعزاز والعليا ويبقى
لنا ذكر يذيع المجد عرفا

عدوى لو تعاشرنى قليلا لعدت كما عرفتك لى خليلا
فعهدى بعد مينك لن يحولا وودى رغم نكثك لن يزولا
وحر محبتى هيهات يطفى .

والشاعر ها هنا يتابع درب اخوانه شعراء الانسانية مشيرا ــ دون أن يدرى ــ الى الأساس الذى قامت عليه هذه النزعة الانسانية « ألسنا كلنا غرباء نشقى » .

وحدة القصيدة :

الشعر العربى منذ العصر الجاهلى الى مطالع هذا القرن لا يعرف الوحدة الموضوعية والفنية ، فالقصيدة فى يد الشاعر متعددة الأغراض والأفكار وهى تجمع شتيتا من الصور المتناقضة التى لا تجمعها رابطة .. فالشاعر يبدأ بالنسيب الذى يتصل بوصف الناقة بعد ذلك أو بوصف الصحراء ويتخلص الى غرضه من مدح أو هجاء أو فخر أو رثاء دون مقدمات ، فهو يجمع أبواب الشعر العربى التى حددها النقاد العرب فى قصيدة واحدة لا تربطها وحدة موضوعية ولا وحدة فنية فالانتقال من بيت الى آخر لا يعتمد على رابط منطقى أو نفسى فكأن القصيدة معرض لألوان من الأفكار والأحاسيس والصور ، ومن هنا شاع بين النقاد أن البيت الشعرى فى القصيدة العربية وحدة مستقلة عما قبلها وما بعدها . ولذلك قالوا مثلا : أمدح بيت قالته العرب ما قاله فلان !

وقد ساروا على هذه الطريقة يمسكون البيت مفاضلين بينه وبين بيت آخر يتناول نفس الفكرة . وكان النقد حتى ابان ازدهاره فى العصر العباسى لا يتناول القصيدة كعمل فنى منسجم له وحدة تجمع بين أجزائه ولكنه نظر الى هذه الأجزاء على حدة . وكان بعض النقاد العرب على الرغم من التفاتهم السريع لهذه الوحدة يعودون فينقضون

رايهم فيها كالحاتمى المتوفى ٣٨٤ هـ الذى يقول (مثل القصيدة مثل الانسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة) .

وهو هنا يدعو الى الوحدة الكاملة فى العمل الفنى الذى يجب أن تكون أجزاؤه منسجمة فيما بينها انسجام الأعضاء والجوارح التى تكون وحدة الانسان ، ولكنه يرجع فينقض هذا الكلام بعد ذلك .

وقد كان كثير من النقاد القدامى يحبذون هذه الطريقة الجاهلية فى صوغ القصيدة فابن قتيبة المتوفى ٢٧٦ هـ وهو من ألمع النقاد القدامى يقول انه سمع بعض أهل العلم يقول « ان مقصد القصائد انما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فشكا وبكى وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها اذا كانت نازلة العمد فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتجاعهم الكلأ وانتقالهم من ماء الى ماء وتتبعهم مساقط الغيث ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا من شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة ليميل نحوه القلوب ويصرف اليه الوجوه ويستدعى به اصغاء الاستماع اليه لأن النسيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل والف النساء فليس يخلو أحد من أن يكون متعلقا منه بسبب وضاربا فيه بسهم فاذا علم أنه

قد استوثق من الاصغاء اليه والاستماع له عقب بايجاب الحقوق فرحل فى شعره وشكا التعب والسهر وسرى الليل وانضاء الراحلة والبعير فاذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وزمام التأميل وقرر عنده ما ناله من المكاره فى السير بدأ فى المديح فبعثه على المكافآت وهزه على السماع فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام » .

وهكذا سار الشعر العربى على هذا النهج الذى اختطه الجاهليون وسار النقاد فى الركاب مجندين ولم يقف أمام هذا الاتجاه الا أبو نواس وان كانت دعوته لم تترك أثرا يعتد به فقد دعا الى وصف الراح من حيث كان غيره يدعو الى وصف الأطلال فى مطلع القصيدة . ويعلل بعض الباحثين هذه الظاهرة فيقولون : ان الشاعر العربى لا ينظر الى العالم نظرة شاملة ولكنه يقتصر على ما يثير اهتمامه ولذلك لا تحس نقصا فى القصيدة اذا قدمت أو أخرت أو حذفت بيتا أو بيتين فاذا قارنت بين ما يكتبه الجاحظ أو ابن عبد ربه أو أبو هلال العسكرى فى الخطابة أو الوصف وما كتبه الفيلسوف اليونانى أرسطو فى هذين البابين تجد فروقا شاسعة لأن الاختلاف هنا اختلاف عقليتين يمثلان أمتين لكل منهما خصائصها الذهنية كما يقول بعض الباحثين .

فالقصيدة عند امرىء القيس أو جرير أو المتنبى أو

البارودى أو شوقى أو حافظ خليط متباين لا يعرف المنطق الموضوعى أو الوحدة النفسية ففى قصيدة شوقى التى يقول فى مطلعها :

سلوا قلبى غداه سلا وتابا   لعل على الجمال له عتابا

نجد مقدمة فى الغزل ثم يخرج الشاعر منه الى الحكمة وبيان ما فى دين الله من اشتراكية وعدل واخاء ويبلغ ذلك فى القصيدة نحو الأربعين بيتا ثم يبدأ فيذكر ما كان قد نسيه من الاشادة بالرسول العظيم وذكر مولده الكريم ويلم به اى بجوهر القصيدة فى أقل من خمسة وعشرين بيتا وكذلك فعل فى قصيدته « مشروع ملنر » :

اثن عنان القلب واسلم به   من ربرب الرمل ومن سربه

فقد بدأها بالغزل ثم تحدث بعد خمسة وعشرين بيتا فى السياسة وهو موضوع القصيدة . ومن أوائل من أدخلوا الوحدة على القصيدة العربية شعراء المهجر الذين نظروا اليها كعمل فنى موحد متكامل الأجزاء كالبنية الحية ولم تكن الوحدة فى أيديهم وحدة الموضوع فحسب ولكنها امتدت الى الوحدة النفسية أيضا فان تجديد هؤلاء الشعراء لم يقتصر على تناول الموضوع الواحد الذى نفتقده فى أغلب الشعر العربى على مر العصور ولكنه تناول الوحدة النفسية للموضوع فأصبح جو القصيدة جوا نفسيا لا ذبذبة فيه ولا تناقض .

فالانتقال من بيت الى بيت انتقال طبيعى يتساوق مع

الجو الشعورى العام للقصيدة ويجاوب الهزة النفسية فى درجتها المعينة التى تسود القصيدة كلها . فالوحدة النفسية والشعورية فى لونها ودرجتها وانتقالها الطبيعى تتمشى فى القصيدة كلها بحيث يصل القارىء الى آخر بيت فيها وقد أحس أن الشاعر قد أفرغ تجربته كلها فى جو واحد لا ذبذبة فيه ولا فجوات فكأن القصيدة تنحو ــ فى جزئياتها ــ نحوا عضويا متكاملا . نرى كل هذا فى شعر المهجر ويكفينا ها هنا أن نتناول قصيدة (النهر المتجمد) لميخائيل نعيمة :

يا نهر هل نضبت مياهك فانقطعت عن الخرير
أم قد هرمت وخار عزمك فانثنيت عن المسير
بالأمس كنت مرنما بين الحدائق والزهور
تتلو على الدنيا وما فيها أحاديث الدهور
بالأمس كنت تسير لا تخشى الموانع فى الطريق
واليوم قد هبطت عليك سكينة اللحد العميق
بالأمس كنت اذا أتيتك باكيا سليتنى
واليوم صرت اذا أتيتك ضاحكا أبكيتنى
بالأمس كنت اذا سمعت تنهدى وتوجعى
تبكى .. وها أبكى أنا وحدى ولا تبكى معى
ماذا جرى لك بعد ما قد كنت تهزج فى الصباح
هل أجمدتك كآبتى وسمعت ندبى والنواح
ماذا جرى لك بعد ما قد كنت تنشد فى المسا

هل داهمتك مصـــائب مثلى فأخرسك الأسى
ما هــذه الأكفان ـ أم هذى قيــود من جليد
قد كبلتــك وذللتك بهـــا يد البرد الشــديد
ها حولك الصفصاف لا ورق عليــه ولا جمــال
يجثــو كئيبــا كلما مرت به ريح الشـــمال
والحور ينــدب فوق رأسـك ناثرا أغصـــانه
لا يسرح الحســون فيــه مرددا ألحـانه
تأتيــه أسراب من الغربان تنعق فى الفضــا
فكأنهـــا ترثى شـبابا من حيـــاتك قد مضى
وكأنها بنعيبهـــا عند الصــباح وفى المســاء
جوق يشـــيع جسمك الصـــافى الى دار البقاء

***

لكن سينصرف الشـــتا وتعـــود أيام الربيـــع
فتفك جسمك من عقـــال مكنته يد الصـــقيع
وتكر موجتـــك النقيـــة حرة نحو البحـــار
حـــبلى بأسرار البقـــا ثملى بأنوار النهـــار
وتعود تبسم اذ يلاطف وجهك الصـــافى النسيم
وتعود تسبح فى ميـــاهك أنجم الليـــل البهيم
والبدر يبســـط من سماه عليك سترا من لجين
والشمس تســـتر بالأزاهر منكبيـــك العاريين
والحور ينسى ما اعتراه من المصـــائب والمحن

ويعود يشمخ أنفه ويميس مخضر الفنن
وتعود للصفصاف بعد الشيب أيام الشباب
فيغرد الحسون فوق غصونه بدل الغراب
... الخ ...

***

قد كان لى يا نهر قلب ضاحك مثل المروج
حر كقلبك فيه أهواء وآمال تموج
قد كان يضحى غير ما يمسى ولا يشكو الملل
واليوم قد جمدت كوجهك فيه أمواج الأمل
فتساوت الأيام فيه ــ صباحها ومساؤها
وتوازنت فيه الحياة ــ نعيمها وشقاؤها
سيان فيه غدا الربيع مع الخريف أو الشتاء
سيان نوح البائسين وضحك أبناء الصفاء
نبذته ضوضاء الحياة فمال عنها وانفرد
وغدا جمادا لا يحن ولا يميل الى أحد
وغدا غريبا بين قوم كان قبلا منهم
وغدوت بين الناس لغزا فيه لغز مبهم

***

يا نهر ذا قلبى أراه كما أراك مكبلا
والفرق أنك سوف تنشط من عقالك وهو لا

***

والقصيدة فى نظر العين الواعية عمل فنى متكامل له أوله وله آخره ، فالشاعر يسأل النهر عن سر كآبته بعد أن كان جذلان مسرورا يسير مترنما بين الحقول ، والأطيار على أشجار الحور تجاوب فرحته بالغناء ويتذكر أنه كان يأتيه باكيا فيضحكه فماذا غير الحال ؟ هل جحدته كآبة الشاعر ؟ أم المصائب التى أخرست الشاعر قد أسكتته هو الآخر ؟. ثم يصف «نعيمة» هذه الصور الكئيبة التى تحيط بالنهر ويعود بعد أن وازن بينه وبين النهر ليقرر أنه سوف ينشط من عقاله وأن هذه القيود التى تكبله ستزول ليعود النهر الى جريانه والأطيار الى غنائها والحور الى ازدهاره والصفصاف الى شبابه . أما الشاعر الذى يرى قلبه كالنهر فى الحزن والبأساء فيقول ان الفرق بينه وبين النهر انه سيعود الى حريته وسعادته أما قلبه فسيظل كما هو حزينا .

فالقصيدة فكرة واحدة تعرض فى جزئياتها عرضا متسلسلا منطقيا فكل بيت فيها ينمو نموا عضويا كما تنمو الجوارح فى البنية الحية فلا نستطيع تقديم بعض الأبيات أو حذفها أو تأخيرها واذا فعلنا فستبدو لنا القصيدة مشوهة مبتورة وهكذا تسير وحدة القصيدة سيرها الطبيعى .

أما الوحدة النفسية والفنية فمتكاملة تسود القصيدة كلها فان جو الأسى يشيع فيها ملقيا غلالته الشفافة عليها ، والأسلوب رائق يواكب التجربة الشعرية ودرجة احساسها

العاطفى والموسيقى هادئة تتفق وجو الأسى وهى مع الصور الكابية التى يرسمها الشاعر للنهر فى حال جموده تعطى جوا كله انسجام نفسى واحد .

وهكذا تخرج القصيدة من يد الشاعر المهجرى كسيمفونية متجانسة . فكما تشترك الآلات الموسيقية على اختلافها وتباين نغماتها فى بناء السيمفونية الضخمة تشترك الصور والموسيقى الأسلوبية والانفعالات والأفكار فى بناء القصيدة الشعرية لتكون عملا فنيا كاملا .

***

حب الطبيعة وعمق الاحساس بها :

اتجه شعراء المهجر الى الطبيعة كملاذ يتخلصون عنده من مشاكل حياتهم المادية فانصرفوا اليها يستوحونها مندمجين فيها وهم فى هذا الاتجاه يتابعون شعراء الرومانتيكية الذين فروا من الواقع المؤلم الى رحاب الطبيعة الأم فوجدوا فيها الراحة لنفوسهم المتعبة المكدودة والسعادة والطمأنينة بعيدا عن هذه الحياة المادية الآلية التى تعج بها الحياة الأمريكية الصاخبة ، ومن هنا كان سخطهم على هذه الحياة :

وكنت مع الله فى قريتى
فصرت بلا الله فى غربتى

ويقول أبو ماضى :

أيهـــا الســـائل عنى من أنا
أنا كالشمس الى الشرق انتسابى
لغة الفـــولاذ هاضـــت لغتى
لايعيش الشدوفى دنيا اصطخاب

ويقول الشاعر القروى :

يابرازيل لو أفضت على المال فيضا ماطاب فيك المقام
أين فصـــل الربيـــع فيك
ولين الشمس أين الهلال أين التمام
أنت نعم البـــلاد جودا وخصبا
غير أن الهنـــاء فيك حـــرام

والسبب هو هذه الحياة التى تقوم على الصراع والتفانى فى التكالب على حكامها :

وكأن الورى وحوش بآجام وتلك الشوارع الآجام
منكب حـــك منكبا .. وجـــبين
شج رأسا .. علام هذا الزحام

ولجبران قطعة شعرية منثورة بعنوان (مناجاة الروح) يوازن فيها بين اشراق الصباح على نيويورك وطلوعه فى لبنان وكذلك فعل نعيمة فى (المراحل) فقد وازن بين الحياة فى هذه المدينة والحياة بجوار جبل (صنّين) .

وهكذا فر شعراء المهجر من صخب الحياة الى الطبيعة فكانت لهم ملاذا وملجأ تستريح اليه نفوسهم ، ومن هنا

نستطيع أن نفسر هذا الحب العميق للطبيعة التى التفتوا اليها التفات الألفة والصداقة والاندماج الروحى ومن هنا أيضا تفترق جادة الشعر المهجرى الذى تناول الطبيعة وشعرنا العربى الذى تناولها دون استثناء عصر من العصور .

فالشاعر العربى لم يتصل بالطبيعة اتصال ألفة وامتزاج .. لم يحس أنه ابن هذه الطبيعة السمحة العطوف فهو اذا تعرض لها استعار عين (الكاميرا) الفوتوغرافية فتناول الشكل ولم ينفذ الى الجوهر فالشاعر يعطيك تفاصيل المنظر الطبيعى فحسب فقد كان كل همه هو أن يقرب اليك هذا المنظر وأن ينقله اليك ، ولم يسلم من هذه الطريقة السطحية حتى الشعراء الذين اقتصروا على الطبيعة وعرفوا فى الشعر العربى أنهم شعراؤها ككشاجم وابن خفاجة وابن حمديس وغيرهم .

فالشاعر العربى لا يحس بالتجاوب العميق مع الطبيعة وعينه لا ترى الا هذه المرائى الظاهرة منها وحبه لها حب سطحى لا يتغلغل الى أعماقها تغلغلا صوفيا وانما هو شغف — ان كان — مباشرا ليس وراءه الفكرة الفلسفية أو الاحساس الصوفى .

يقول أبو القاسم الشابى : أن الشاعر العربى (اذا تحدث عن ظواهر الطبيعة أسهب فى القول وأطال البيان ولكنه فى كل ذلك لا يتحدث عن الطبيعة بشغف الشاعر وخشوع

المتعبد بل يتناولها تنـاول القاص الذى لا يحفل بجـلال المشهد أو جماله وانما الذى يهمه أن يصفه كما رآه دون أن يخلع عليه حلة من شعوره أو عبقا من عواطفه) .

ولعلنا نرى مصـداق هـذا الكلام حينما نرجع الى محصولنا من الشعر العربى الذى تعرض للطبيعة ، فالمتنبى فى قصـدته التى يمدح فيهـا علياً بن ابراهيم التنوخى يقول :

لولاك لم أترك البحيرة والغـور دفىء وماؤها شبم
والموج مثل الفحـول مزبدة
تهدر فيها وما بهـا قطم
والطـير فوق الحباب تحسبها
فرسـان بلق تخونهـا اللجم
كأنهـا والرياح تضربهـا
جيشـا وغى هازم ومنهـزم
كأنها فى نهـارها قمـر
حف به من جنـانها ظـلم
تغنت الطـير فى جـوانبها
وجادت الأرض حـولها الديم

والصورة هاهنا ـ كما نرى ـ صورة شكلية لا تقوم الا على خطوط لا تقرب الا منظرا بصريا خاطفا والغريب الذى استرعى نظرنا أن الشاعر العربى اذا تعرض لوصف منظر طبيعى لا يقتصر على تصويره فوتوغرافيا كما قلنا

ولكنه ينتهز هذه الفرصة ليعرض لنا براعته البيانية فهو مشغول عن الامتزاج بهذا المنظر أو الاحساس به بايراد التشبيهات المتوالية التى كأنها هى الغرض من القصيدة وذلك واضح فى أبيات المتنبى السابقة وأبيات القاضى التنوخى التالية التى يصف فيها سحابة :

سحاب أتى كالأمن بعد تخوف
له فى الثرى فعل الشفاة بمدنف
اكب على الآفاق اكباب مطرق
يفكر .. أو كالنائم المتلهف
ومد جناحيه على الأرض جانحا
فراح عليها كالغراب المرفرف
غدا البر بحرا زاخرا وانثنى الضحى
بظلمته فى ثوب ليل مسجف
فعبس عن برق به متبسم
عبوس بخيل فى تبسم معتف
تحاول هذه الشمس فى الأرض مخرجا
كما حاول المغلوب تجريد مرهف

ففى هذه الأبيات ـ وغيرها كثير ـ لا نرى الشاعر العربى يفسح من رقعة خيالنا ولا ينفذ الى ما وراء الموصوف ـ ولا يحس أدنى احساس بأنه جزء من هذا الكون الذي تشاركه فيه البحيرة أو السحابة فكل عمله

اقتصر على رسم « المنظر » رسما بصريا شكليا محدودا وهو تصوير مادى يقدم المنظر فى جملته دون عمق أو حنان أو اندماج نفسى . فالطبيعة بعيدة عن نفس الشاعر العربى القديم وذلك أن احياءها والاندماج فيها يحتاجان الى « رصيد ضخم مذخور من الحيوية الباطنية والصوفية الروحية وقد كانت حيوية العرب حيوية حس وذهن تنفق أولا بأول فى الانفعال القريب والحركة المباشرة والعمل المنظور والفكرة المبلورة فلم يبق فى نفوسهم ذلك الرصيد المذخور فى الباطن للتأملات والتصورات » .

فبقيت الطبيعة فى عين الشاعر العربى القديم وسيلة لا غاية ومعرضا لمشاهد جميلة لا مصدرا لايحاءات روحية تحمله على التأمل العميق وتوحى اليه بالمعانى الخالدة والأفكار السامية .

وقد فصل الدكتور أحمد زكى أبو شادى اتجاهات الشعراء المختلفة فى نظرتهم الى الطبيعة فقسمها الى الأقسام الآتية :

١ ــ الفرحة الساذجة بالطبيعة كفرحة الأطفال التى لا يمتزج بها التفكير أو المعانى العميقة .

٢ ــ التعلق بجمال الطبيعة المادى وهو حب لها توجيه العين فلا يتغلغل تغلغلا صوفيا ، هو حب للطبيعة لذاتها وتعلق مباشر بها لا يتعداها لأى معنى أو الهام وراءها .

٣ ــ استعارة الطبيعة مادة للمجاز والخيال والتصوير

وهذا مشهور بكثرة فى الشعر العبرى وشعر هومر وفرچيل وابن خفاجة الأندلسى .

٤ ـ استغلال الطبيعة كأرضـــية (Background) لصورة يرسمها الشاعر أو لعاطفة يعبر عنها كما هو الحال عند شعراء القصص وان كان الشعراء القصصيون الحديثون أمثال تينسون توسعوا فى ذلك كثيرا فان استغلال الطبيعة بهذه الصورة يساعد على ابراز القصة أو الموعظة أو الحالة التى يصورها الشاعر .

٥ ـ التداعى والمشاركة بحيث لا يستغنى الشاعر عن ذكر مشاهد الطبيعة فى شعره بأن الموقف التاريخى الذى يصفه أو الحالة التى يعالجها أو ذكرياته الخاصة تستدعى ذلك وهذا ملحوظ فى شعر ولتر سكوت التاريخى وفى شعر جولدسمث عن « القرية المهجورة » .

٦ ـ شعر الطبيعة الوصفى حيث تتجه عناية الشاعر ومشاعره الى مشاهد الطبيعة نفسها وصفا خالصا .

٧ ـ المقابلة بين الطبيعة والانسان وذلك باظهار عظمة الأولى وضعف الانسان أو حاجته اليها وحنينه الى الاندماج فيها .

٨ ـ اظهار قسوة الطبيعة وعدم مبالاتها بالانسان .

٩ ـ تناول الطبيعة تناولا علميا .

هذه هى اتجاهات الشـــعراء المتباينة فى نظرتهم الى الطبيعة « ولسنا نجد حتما كل قسم من هذه الأقسام ـ

كما يقول أحمد زكى أبو شادى ـ مستقلا بذاته بل قد يتدخل بسهولة أحد هـــذه الأقسام فى غيره فنجد مثلا التصوف والوصف مزيجا واحدا وهلم جرا » .

واذا نظرنا الى هــذه التقسيمات وجــدنا أن الشعر العربى لا يكاد يشارك الا فى اتجاهين هما الثانى والثالث أى التعلق بجمال الطبيعــة المــادى الذى يقوم على ما تلقطه العين دون التغلغل تغلغلا صوفيا ، وهو حب الطبيعة لذاتها وتعلق مبــاشر بها لا يتعداها لأى معنى أو الهــام وراءها واستعارة الطبيعة مادة للمجاز والخيال والتصوير .

هــذا هو موقف الشعر العــربى من الطبيعة فما هو موقف شعراء المهجر الذين أكملوا هذا النقص وارتفعوا بالشعر العربى الى نفس الأوج الذى وصل اليــه الشعر الغربى ؟

لقد أصبح هؤلاء الشعراء الرواد الأوائل لشعراء اليوم من حيث الالتفات الى الطبيعة كمصدر من مصادر الوحى والتأمل والصوفية فهى عندهم رمز الجمال والحرية والمحبة ولذلك شاع فى شعرهم مناجاتها والاندماج معها اندماجا صوفيا وأكثر ما يتوضح ذلك عندما يتحدثون عن وحــدة الوجود .

ومن هنا كان الغاب يمثل عندهم الرجوع الى المعيشة المثالية فكثر فى شعرهم الحديث عنه . و « مواكب » جبران اكبر مثال لتناول موضــوع الغــاب والعودة اليــه فهو فى

المواكب هذه ذات المائتين والثلاثة أبيات فيها مائة وخمسة وعشرون بيتا تدور على الغاب وحياته الطليقة السعيدة فهو يوازن فى ملحمته الصغيرة هذه بين حيـاة المدينة بريائها ونفاقها وضجتها وتقاليدها وبين الحياة الفطرية الطليقة فى الغاب . فالشاب يسأل الشيخ :

هل تخـذت الغاب مثلى منزلا دون القصـور
فتتبعـت السـواقى وتسـلقت الصـخور
هـل جلست العصر مثلى بين جفنـات العنب
والعناقـيد تدلت كثـريات الذهـب
هـل فرشت العشب ليلا وتلحفـت الفضـا
زاهـدا فيما سـيأتى نـاسيا ما قـد مضى

وهكذا يقف الغـاب رمزا للحياة السـعيدة بل رمزا للحياة الخالدة و « المواكب » تظهر لنا الاحساس العميق بالطبيعة والاقبـال عليها وهى كما رأينـا دعوة حارة الى الرجوع اليها . ويدعو أبو ماضى الى الغاب أيضا :

تعالى ان رب الحب يدعونا الى الغـاب
لكى يمزجنا كالمـاء .. كالخمرة فى كاس
ويغدو النور جلبابك فى الغـاب وجلبابى
فكم نصغى الى الناس ونعصى خالق الناس

وكذلك يفعـل نسيب عريضة الذى يرى أن النفس تتعرى فيه :

يا نفس رحماك أين تمضى
فما أمامى سوى قبور
قد سامك العقل سوم علج
ما لا تطيقين من أمور
فلنترك العقل حيث يبغى
فليس للعقل من شعور
فصاحت النفس بى وقالت
مالى وللناس والزحام
أصبت يا نفس فاتبعينى
فليس كالغاب من مقام
يا غاب جئناك للتعرى
أنا ونفسى ولا حرام

وهكذا يدعو شعراء المهجر الى الطبيعة والالتجاء اليها فهم يحبونها حبا عميقا ولذلك شغفوا بتصويرها والتمثيل بها واتخذوها موضوعا لتأملاتهم الشعرية كما نرى فى « النهر المتجمد » لنعيمة وقصائد ديوان « أحلام الراعى » لالياس فرحات وهى تدور كلها على مسرح الطبيعة وتتناولها كعنصر يستغله الشاعر لابداء آرائه خلاله .

يقول من قصيدة « فلسفة الغضروف » :

فالتمست نعاجى بواسق الأشجار
فى ظلها الرجراج تفعل ما تختار
وللغدير الساجى والجدول الثرثار

سر هـوى يبديه هـذا وذا يستاء
يود لو يخفيه حتى على الماء
ألقيت حمل الهم ونمت كالرضيع
فى حضن هذى الأم من تحضن الجميع

وديوان « أحلام الراعى » يدور كله فى هذا الفلك من الشعر الجميل الذى يتناول الطبيعة تناول الألفة والحب . يقول جبران :

أيها الشحرور غرد فالغنا سر الوجود
ليتنى مثلك حر من سجون وقيود
ليتنى مثلك روحا فى فضا الوادى أطير
أشرب النور مداما فى كؤوس من أثير
ليتنى مثلك طهرا واقتناعا ورضا
معرضا عما سيأتى غافلا عما مضى

ويتضح فى هذه القصيدة شغف الشاعر المهجرى بالطبيعة ورغبته الملتهبة فى الغناء فيها ونرى هذه اللهفة أيضا فى الأبيات الآتية :

من لنفسى تود لو تغمر الكون هياما بحسنه المعبود
مثلوا لى هذا الوجود بشىء
أنا لا أستطيع ضم الوجود

ان هذا الاحساس بالطبيعة والالتفات اليها عرف فى الشعر الغربى ولم يعرفهما الشعر العربى الا فى أبيات مفرقة قد تعلو عن التصوير الفوتوغرافى الذى عرفه شعراؤنا

الأوائل فى هذا القرن حينما ابتدأت اشعاعات هذا الاتجاه الجديد ترد الينا عبر المحيط فتجعلنا نحس أن هناك شعرا عربيا يلتفت الى الطبيعة لا كمنظر خارجى يوصف بعيدا عن مشاعر الانسان وحياته ولكن كجزء من كيان الوجود العام الذى يشارك فيه الشاعر بوجوده .

الرمزية :

البيئة العربية بيئة واضحة بشمسها المتوهجة وصحرائها الممتدة وقد طبعت هذه البيئة العقلية العربية بطابعها فالشعر العربى الذى قيل فيها أخذ منها الوضوح والسفور فالشاعر العربى يصرح بما فى نفسه دون غموض أو رمز ولذلك كان شعرنا العربى القديم شعرا واقعيا يتناول الأشياء عارية لا يحجبها حجاب ومن هنا كانت المعانى التى تقوم على العقل هدف شعرائنا ، فطابع المعانى العامة المتبلورة والقضايا الذهنية الكلية هو الذى يغلب على الشعر العربى وبطبيعة هذه الظاهرة فيه نجده يميل الى أن يلقى المعنى العام النهائى وأن يطالع القارىء بنتيجة التجربة النفسية لا بطريقتها وليس من شك فى أن انتقال العرب من مكان الى مكان سعيا وراء الكلأ له دخل فى هذا الاتجاه فالعربى رحالة يسير خلف العام من المعانى وهو فى سيره هذا لا يستسلم لعقله الباطن فتتجلى له الرؤى وليس عنده الوقت الكافى للتأمل فى خوافى النفس الانسانية ومجاهلها

ولذلك قلت التهويمات فى الشعر العربى وكثرت المعانى بمنطقها وروحها الجامدة .

ولذلك أحب العرب فى شعرهم الجهود العقلية فقدموا المعنى والفكرة الذهنية .

والمعانى العقلية والقضايا الذهنية يقومان على اليقظة الواعية ومن هنا لم تعرف الرمزية طريقها الى الشعر العربى الا على أيدى المهجريين وان ظهرت ألوان منها فى القرآن وشعر المتصوفة والفارق بين شعراء المتصوفة وشعراء المهجر هو أن شعراء التصوف لم يستعملوا الرمزية كغاية فنية تقصد لذاتها وانما هى وسيلة لأداء معان خاصة بها فهم يهتمون بالفكرة أكثر من الأسلوب وبالمعنى أكثر من الشكل فدارت المصطلحات وكثير من الألفاظ على ألسنتهم حتى يخيل الى الانسان أن القصائد الصوفية تصدر عن شاعر واحد لما بين بعضها والبعض الآخر من قرب فى الفكرة والأسلوب ولكنه عند المهجريين غرض يقصد لذاته ففى الوقت الذى كان شوقى وأضرابه يجعلون من الشعر نشرة أخبار فيتناولون الحوادث الجارية من زلازل وبراكين وحرائق وغلاء أسعار وافتتاح مؤسسات بأسلوب تقريرى كان شعراء المهجر وهم أكثر منا تحررا وأقرب الى الآداب الأجنبية يدخلون الرمزية الفنية فى الشعر العربى وكما تفاوت الرمزيون أنفسهم فى أساليبهم فكان منهم رامبو الذى يقوم شعره على السحر اللفظى ومالارمييه الذى لاذ

بالابهام المغلق وڤرلين الذى اهتم بالايقاع اختلف الشعراء المهجـريون فى نزعاتهم الرمزية التى استقوها من الأدب الغربى فمنهم من اقتصرت رمزيته على التعبير أو الصورة ومنهم من كانت رمزيته فى موضوعه مع الابقاء على الصياغة المألوفة كأبى ماضى أما جبران ونعيمة ففى شعرهما المنظوم والمنثور كثير من الصـور الرمزية . يقول نعيمـة بعنوان « الجوع » :

ألقت الأقدار فى قلبى حبة
وسرعان ما اشتبكت جذورها وتمادت
وضخمت صدرها وتعالت
وألقت أغصانها وترامت
الى أن حجبت عنى الأرض والسماء
وهاهى اليوم مثقلة بالثمار .
ما أخال الملائكة يتذوقون مثلها
وأنا الذى يغذيها بعصير قلبه
وان أك جائعا
حتى التلف
لست أجرؤ أن أمد يدى الى ثمرة من ثمراتها

أما جبران فكل شعره المنثور يجنح الى الرمزية كقطعته الشعرية المشهورة « حفار القبور » مثلا . ولأبى ماضى مساهمة فى هذا الاتجاه فله « التينة الحمقاء » و « الغدير الطمـوح » و « الابريق » وغيرها وهى قصـائد رمزية فى

فكرتها لا فى أسلوبها ولسنا فى حاجة لأن ندلل على اتجاهه هذا بقصيدته « الحجر الصغير » فهى مشهورة ومعروفة .

وفى الأرجنتين يعيش الآن أحمد سليمان الأحمد وهو من الشعراء المتأثرين بالرمزية . يقول فى دموع :

أقمت معابد من حبها ... وأشعلت فيها الأغانى شموع
ورفت على شفتى حروف ... ملونة بابتهال وجوع
تصور حبى وأحلامه ... كما صور الورد كف الربيع
وطوقتها بابتسام الحياة ... فنجوى تهف وعطر يضوع
ويالحن ضاعت عهود الهوى ... فأكرم منك لديها الدموع

ولكن يجب أن نقول : ان شعراء المهجر لم يعرفوا الرمزية بمفاهيمها المذهبية وان كانوا قد شاركوا فيها مشاركة من يخط الطريق الجديد .

الشعر المنثور :

كان النثر فى أوائل القرن العشرين يمثل الانحطاط الأدبى بما كان فيه من اهتمام باللفظ دون المعنى الى برقشة بديعية فأصبحت الكتابة حرفة وصنعة وكان كتابنا معذورين فى هذا الاتجاه لأن انتفاضة الأدب العربى التى قامت على أساس الاتصال الرحب بالثقافة الغربية فما كانت لتتأتى يومئذ للخمول الأدبى الذى كان يرين على الأقطار العربية فى ذلك الحين نتيجة لعوامل الكبت الاجتماعى والظلم السياسى والجهل السائد فكان هؤلاء الكتاب يتابعون درب

المقامة التى اهتمت بالبراعة اللغوية والبرقشة اللفظية ولكن قيض الله هذه الزمرة الطيبة من المهاجرين أمثال الريحانى وجبران ونعيمة وغيرهم فاستطاعت أن تشق طريقا بعيدا عن هـــذه المعوقات التى وقفت أمام كتـــاب الشرق . استطاعت هذه الزمرة فى البيئة الحـــرة التى تعيش فيها بعيدا عن الرجعية الأدبية أن ترتفع بالنثر العربى الى أوج عالٍ من السمو والرقى وهو نفس الأوج الذى وصل اليه الشعر . وهم لا يفرقون بين الشعر والنثر من حيث الأداء الفنى فيعتبرون النثر الذى اعتمد على العاطفة والخيال وأناقة الأسلوب شعرا وهى نفس النظرة الحديثة التى تنظر الى الجوهر لا الى القشور ولهذا ضمت « أغانى الدرويش » لرشيد أيوب و « همس الجفون » لنعيمة ـ وهما ديوانا شعر ـ بعض المقطوعات النثرية فأصبح النثر على يد هؤلاء الشعراء يزاحم الشعر فى ميدانه وذلك أن المهجريين قرأوا والت ويتمان فى « أوراق العشب » فوقفوا على لون من الشعر يجمع كل خصائص هذا الفن دون ارتباط بوزن واحد أو دون ارتباط بوزن على الاطلاق . وقد هاجم كتاب الشرق أدب المهجر خصوصا هذا اللون من الشعر ولم يزل بعض الأدباء فى الشرق لا يحبذونه الى الآن وقد اشتهر جبران بالشعر المنثور وقد بلغ من نبوغه فى هذا اللون من الشعر أن قالوا « الطريقة الجبرانية » . يقول فى « أيتها الأرض » :

ما أجملك أيتها الأرض وما أبهاك
ما أظرفك متشحة بالظل
وما أملح وجهك مقنعا بالدجى
ما أعذب أغانى فجرك
وما أهول تهاويل مسائك
ما أكملك أيتها الأرض وما أسنك
لقد سرت فى سهولك وصعدت على جبالك
وهبطت الى أوديتك وتسلقت على صخورك
ودخلت كهوفك فعرفت حلمك فى السهل
وهدوءك فى الوادى وعزمك فى الصخر
وتكتمك فى الكهف
فأنت المنبسطة بقوتها
المتعالية بتواضعها .. المنخفضة بعلوها

وهكذا أصبح النثر شـــعرا يتناول الموضوع الجمالى بأسلوب تتحقق فيه خصائص القصيدة الشعرية الا الوزن

أما الريحانى فهو أول من اتجه هذا الاتجاه ولكنه لم يبلغ بشعره المنثور ما بلغه شعر جبران المنثور من اعجاب وتقدير وبعد هذين الشاعرين الناثرين يأتى نعيمة . يقول من قصيدة نثرية ألقاها عند دفن ســـابا عريضة شقيق نسيب عريضة :

أيها الرفيق الحبيب
ما أفصحك ساكنا وأعياني متكلما

وما احراك بالوعظ وأحرانى بالصمت والاصغاء
لست أبكيك ..
لأنك حيث انت فى غنى عن الدموع
فأنت حى فى وجدانى
كما انك حى فى وجدان البقاء
وان يكن فى عينى دموع
فأنا أحق بها منك
لأنك قد تجردت من شهواتك
اما انا .. فلا أزال فى مهب شهواتى
كذرة فى مهب الريح ..

وهكذا اخذ هذا الاتجاه الشعرى الجديد ينمو على أيدى هؤلاء الشعراء حتى تابعهم بعض كتاب الشرق كحسين عفيف وألبير أديب وثريا ملحس وغيرهم ممن يكتبون الشعر المنثور .

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

تصدرها الدار المصرية للتاليف والترجمة

توزيع مكتبة مصر ـ ٣ شارع كامل صدقى

صدر منها (ابتداء من أول يوليو ١٩٦٥) :

١٣٦ـ المدارس الفلسفية . . . للدكتور احمد فؤاد الاهوانى
١٣٧ـ الرسول . . . . للدكتور عبد الحليم محمود
١٣٨ـ خيال الظل . . . . . . للدكتور عبد الحميد يونس
١٣٩ـ الحشرات والانسان . . . للدكتور عفيفى محمود
١٤٠ـ حركة السكان . . . . . للدكتور محمد السيد غلاب
١٤١ـ الاراضى والمجتمع . . . . للدكتور محمود يوسف الشواربى
١٤٢ـ الوان من احياء البحر . . . للدكتور محمد رشاد الطوبى
١٤٣ـ العرب فى اوربا . . . . . للدكتور على حسنى الخربوطلى
١٤٤ـ فلسفة اللغة العربية . . . للدكتور عثمان امين
١٤٥ـ الانسان وصحته النفسية . . للدكتور مصطفى فهمى
١٤٦ـ شيوخ العصر فى الاندلس . . للدكتور حسين مؤنس
١٤٧ـ قصة الانسان القديم وحضارته للدكتور انور عبد العليم
١٤٨ـ أسرار العبادات فى الاسلام . . للدكتور عبد الحليم محمود
١٤٩ـ اضواء علي الفكر العربى الاسلامي للأستاذ أنور الجندى

أعلام العرب

تصدرها الدار المصرية للتاليف والترجمة
توزيع مكتبة مصر ـ ٣ شارع كامل صدقى
تظهر تباعاً كل يوم ٧ من كل شهر

ظهر منها :

١ ـ محمد عبده . . . . . الأستاذ عباس محمود العقاد
٢ ـ المعتمد بن عباد . . . الأستاذ على ادهم
٣ ـ جابر بن حيان . . . الدكتور زكى نجيب محمود
٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون . الدكتور على عبد الواحد وافى
٥ ـ ابن تيميــة . . . . الدكتور محمد يوسف موسى
٦ ـ معــاوية . . . . . الأستاذ ابراهيم الابيارى
٧ ـ سيد درويش . . . . الدكتور محمود احمد الحفنى
٨ ـ عبد القاهر الجرجانى . . الدكتور احمد احمد بدوى
٩ ـ عبد الله النديم . . . الدكتور على الحديدى
١٠ ـ عبد الملك بن مروان . . الدكتور ضياء الدين الريس
١١ ـ مالك . . . . . . الأستاذ امين الخولى
١٢ ـ القلقشندى . . . . . الدكتور عبد اللطيف حمزة
١٣ ـ الطبرى . . . . . . الدكتور احمد محمد الحوفى

١٠٢

١٤ ـ	الظاهر بيبرس	الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ ـ	ابن الفارض	الدكتور محمد مصطفى حلمي
١٦ ـ	المختـــار الثقفي . . .	الدكتور علي حسني الخربوطلي
١٧ ـ	الوليد بن عبد الملك . .	الأستاذ احمد الشرباصي
١٨ ـ	الاصمعي	الدكتور احمد كمال زكي
١٩ ـ	زكريا احمد	الأستاذ صبري ابو المجد
٢٠ ـ	قاسم امين	الدكتور ماهر حسن فهمي
٢١ ـ	شكيب ارســلان	الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف
٢٢ ـ	ابن قتيبة	الدكتور عبد الحميد سند الجندي
٢٣ ـ	ابو هــريرة	الأستاذ محمد عجاج الخطيب
٢٤ ـ	عبد العزيز البشري . .	الدكتور جمال الدين الرمادي
٢٥ ـ	الخنساء	الدكتور محمد جابر عبد العال الحين
٢٦ ـ	الصاحب بن عباد . . .	الدكتور بدوي طبانة
٢٨ ـ	الناصر محمد بن قلاوون .	الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ ـ	احمــد زكي	الأستاذ انور الجندي
٣٠ ـ	حسان بن ثابت	الدكتور سيد حنفي حسنين
٣١ ـ	المثنى بن حارثة الشيباني .	العقيد محمد فرج
٣٢ ـ	مظفر الدين كوكبوري . .	الأستاذ عبد القادر احمد طليمات
٣٣ ـ	رشيد رضا الامام المجاهد .	الدكتور ابراهيم احمد العدوي
٣٤ ـ	اسحاق الموصلي	الدكتور محمود احمد الحفني
٣٥ ـ	ابو حيان التوحيدي . .	الدكتور زكريا ابراهيم
٣٦ ـ	ابن المعتز العباسي . . .	الدكتور احمد كمال زكي
٣٧ ـ	الزهاوي	الدكتور ماهر حسن فهمي
٣٨ ـ	ابو العلاء المعري . . .	الدكتورة عائشة عبد الرحمن

٣٩ ـ احمد لطفى السيد . . الدكتور حسين فوزى النجار
٤٠ ـ الجـويلى . . . . الدكتورة فوقية حسين محمود
٤١ ـ الناصر صلاح الدين . . الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ ـ عبد الله فكرى . . . . الأستاذ محمد عبد الغنى حسن
٤٣ ـ عبد الله بن الزبير . . . الدكتور على حسنى الخربوطلى
٤٤ ـ عبد العزيز جاويش . . الأستاذ أنور الجندى
٤٥ ـ ابن رشيق . . . . الأستاذ عبد الرءوف مخلوف
٤٦ ـ محمد بن عبد الملك الزيات . الأستاذ محمود الهجرسى
٤٧ ـ حفنى ناصف . . . . الأستاذ محمود غنيم
٤٨ ـ احمد بن طولون . . . للدكتورة سيدة اسماعيل كاشف
٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى . للأستاذ أحمد سعيد الدمرداش

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقى